W. Arthur Jeffery

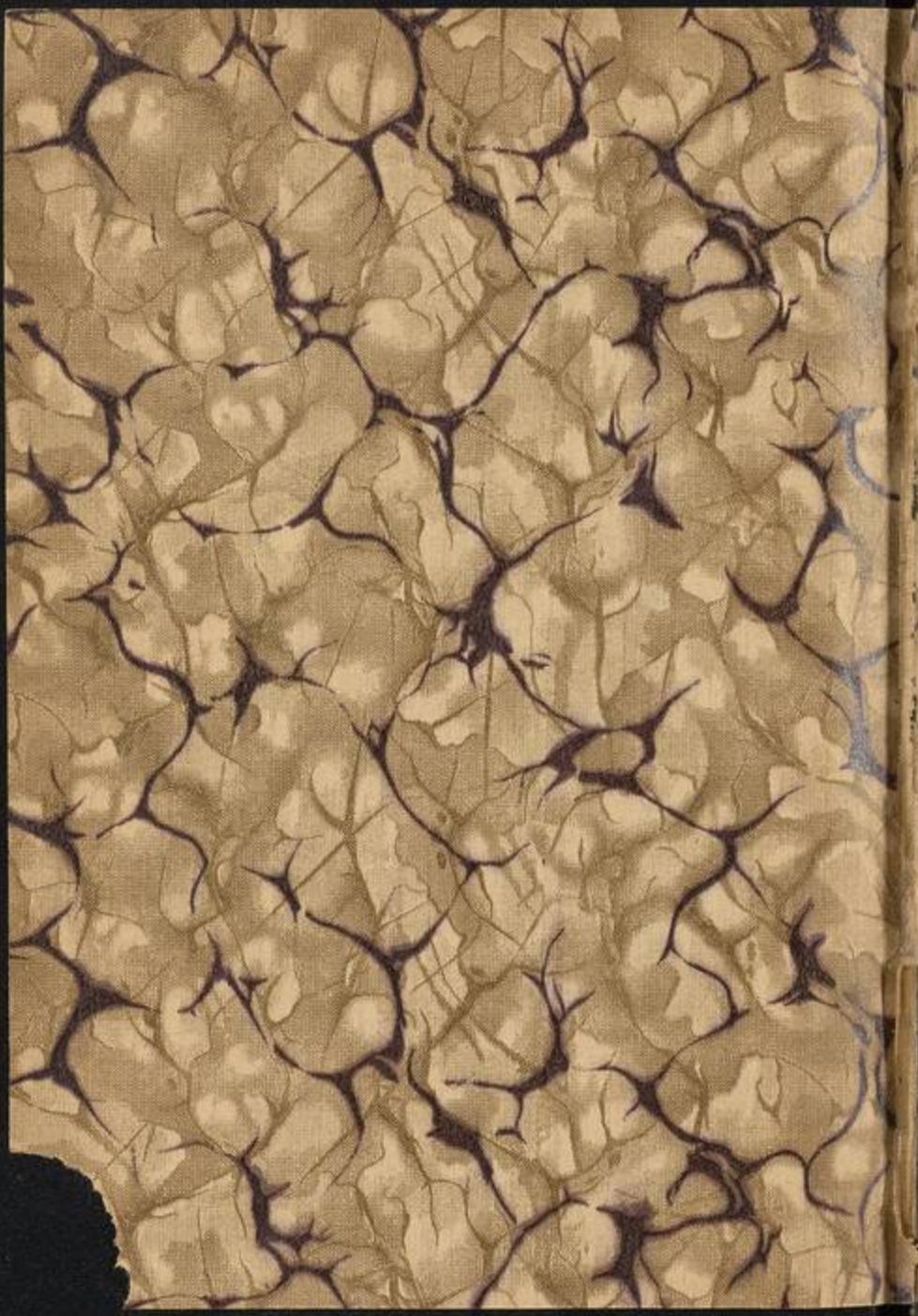

نور اليقين

في

سيرة سيد المرسلين

لمؤلفه

محمد الخضرى

الحائز شهادة التدريس من مدرسة دار العلوم الخديوية
ووكيل مدرسة القضاء الشرعي وأستاذ التاريخ الاسلامى
بالجامعة المصرية سابقاً

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ﴾

« طبعة سادسة سنة ١٣٣٩ »

على نفقة

عبد العزيز ومحمد ومحمود سيف الدين الحلبى أبناء عم

بمصر

مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا من أوضحت لنا سبل الهداية . وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية . ونصلي ونسلم على من أرسلته شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان . يبتغون من الله الفضل والرضوان . والأنصار الذين آووا ونصروا . وبذلوا لاعزاز الدين ما جمعوا وما ادخروا

(أما بعد) فيقول محمد الخضري ابن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين وأجدها لعقل الانسان أحسن مهذب وأنصح معلم وكنت أرى في تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام وما لقيه من أذى قومه حينما دعاهم الى الحق وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده أعظم مربٍّ لأفكار المسلمين فانه يدلهم على ما يجب اتباعه وما يلزم اجتنابه ليسودوا كما ساد سابقوهم وخصوصاً ما يتعلق بالحكام من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة وما يتعلق بقواد الجيوش من تأليف الرجال وإحكام المعدات حتى يتم لهم النصر على

أعدائهم وما يتعلق بالعسامة من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على من سواهم فكنت أجد من قراءتها ارتياحاً عظيما وكانت نفسي كثيراً ما تأسف على ترك المسلمين لها فقلما أجد من يشتغل بها ولكني كنت أقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هـذا الموضوع فلما قدمت مدينـة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منهُ علماً بدينهِ تقف دونه فحول الرجال وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال فقلما توضع مسألة دينية إلاّ وجدته مبرّزاً فيها مفصحاً عن الجواب عنها . أما علمه بسـيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فعنده منها الخبر اليقين وكنت كثيرا ما أسمعه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامة المسلمين فقلت يا لله لقد وافق هـذا السيد الكريم ما في نفسي ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته فان المقام عظيم وصعوباته أعظم ولكن لم أر من الامر بدّا تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة فانهم أكثروا من الأماني لعمل هـذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة فقمت معتمداً على الله راجياً منه أن يوفقني لما فيه رضاه وواصلت السير بالسرى حتى بلغت المنى فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامة وترجع اليه الخاصة . وقد كان موردي في تأليفه القرآن الشريف وصحيح السنة مما رواهُ الامامان البخاري ومسـلم ولم أخرج

عنهما إلاّ فيما لا بد منهُ من تفهيم العبارات فكان يساعدني الشفاء للقاضي عياض والسيرة الحلبية . والمواهب اللدنية للقسطلاني وإحياء علوم الدين للغزالي . هذا وأسأل الله من فيض فضله أن يوفق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحياء معالم دينه حتى يؤيدوا بروح من عند الله

وقد آن أن نشرع فيما قصدناهُ . مستعينين بحول الله فنقول

﴿ النسب الشريف ﴾

السيد الأكرم الذي شرُف الناس بوجوده هو (محمد بن عبد الله) من زوجه آمنة بنت وهب الزهرية (١) القرشية (ابن عبد المطلب) من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية (٢) القرشية وكان عبد المطلب شيخاً معظماً في قريش يصدرون عن رأيه في مشكلاتهم ويقدمونه في مهماتهم (ابن هاشم) من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية (٣)

(١) من بني زهرة بن كلاب من قريش

(٢) من بني مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش

(٣) من بني النجار من الخزرج والخزرج احدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان بالمدينة وهما الأوس والخزرج وهما اخوان وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا أنصارا

الخزرجية (ابن عبد مناف) من زوجه عاتكة بنت مرّة السلمية (١) (ابن قصيّ) من زوجه حبّى بنت حليل الخزاعية (٢) وكان الى قصيّ في الجاهلية حجابة البيت وسقاية الحاج واطعامه المسمى بالرّفادة والندوة وهى الشورى لايتم أمر الاّ في بيته واللواءُ لاتعقد راية لحرب الا بيده ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار ولكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على أن لا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد يفضي الأمر الى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم الى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده . أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهي فيهم الى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار . وأما اللواء فدام فيهم حتى أبطله الاسلام وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة . وقصي (بن كلاب) من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزدشنوءة (ابن مرة) من زوجه

---

(١) من بني سليم بن منصور احدى قبائل قيس عيلان بن مضر

(٢) من بني خزاعة بن عمرو احدى قبائل قمعة بن الياس بن مضر وهم الذين كانوا يتولون البيت قبل قريش

هند بنت سرير من بني فهر بن مالك (ابن كعب) من زوجه وحشية بنت شيبان من بني فهر أيضاً (ابن لؤي) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاعة (ابن غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي (ابن فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل وفهر هو قريش في قول الأكثرين وكانت قريش اثنتى عشرة قبيلة بنو عبد مناف وبنو عبد الدار بن قصي وبنو أسد بن عبد العزى ابن قصيّ وبنو زهرة بن كلاب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرّة وبنو تيم ابن مرّة وبنو عديّ بن كعب وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب وبنو عامر بن لؤي وبنو تيم بن غالب وبنو الحارث بن فهر وبنو محارب ابن فهر والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح والذين بضواحيها قريش الظواهر (ابن مالك) من زوجه جندلة بنت الحرث من جرهم (ابن النضر) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان (ابن كنانة) من زوجه برّة بنت مر بن أد (ابن خزيمة) من زوجه عوانة بنت سعد من قيس عيلان (ابن مدركة) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة (ابن الياس) من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة (ابن مضر) من زوجه الرباب بنت جندة بن معد (ابن نزار) من زوجه سودة بنت عك (ابن معدّ) من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم (ابن عدنان)

هـذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين أما النسب فوق ذلك فلا يصح فيه طريق غاية الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهي الى اسماعيل بن ابراهيم أبي العرب المستعربة . نسب شريف كما ترى آباء طاهرون وأمهات طاهرات لم يزل عليه السلام يتنقل من أصلاب أولئك الى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهدياً من أوسط العرب نسباً فهو من صميم قريش التي لها القدم الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً ليس فيهم مسترذل بل كلهم سادة قادة وكذلك أمهات آبائه من أرفع قبائلهن شأناً ولا شك أن شرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً بحسب الأصول العربية ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهره الله من ذلك والحمد لله

﴿ زواج عبد الله بآمنة وحملها ﴾

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه اليه فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وسنه ثماني عشرة سنة وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ولما دخل عليها حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين

ودفن بالمدينة عند أخواله بني عديّ بن النجار فانه كان ذهب بتجارة الى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع ولما تمت مدة حمل آمنة وضعت ولدها فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بث في أرجائه روح الآداب وتمم مكارم الأخلاق وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من ابريل سنة ٥٧١ من الميلاد وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل (١) وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم وكانت قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه محمداً ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكره في الكتب التي جاءت

---

(١) حادثة شهيرة حصلت بمكة فأرخت بها العرب كعادتهم هم وكل أمة في التاريخ بالأمور المهمة وقد ذكر القرآن هذه الحادثة في سورة الفيل وحاصلها أن ملكا من ملوك الحبشة الذين امتلكوا اليمن بعد حمير أغار على مكة وقصد هدم كعبتها وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله فاكراماً للنبي المنتظر وغيرة على بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وأراح قريشاً من عناء مقاومتهم اه

بها الأنبياء كالتوراة والانجيل فألهم جده أن يسميه بذلك انفاذا لأمره وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه عبد الله وأول من أرضعه ثويبة أمة عمه أبي لهب

﴿ الرضاع ﴾

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد وكانوا يقولون ان المربي في المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالا يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية واسم زوجها أبو كبشة وهو الذي كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء ودرّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات (١)

﴿ حادثة شق الصدر ﴾

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة وهي شق صدره واخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته الى أمه وحدثتها

(١) السيرة الحلبية

قائلة بينما هو واخوته في بهم لنا خلف بيوتنا اذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاهُ فشقا بطنه فهما يسوطانه (١) فخرجت أنا وأبوهُ نحوه فوجدناه منتقعاً لونه (٢) فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يا بنيّ فقال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه أهو هو قال نعم فأقبلا يتتدراني فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو

﴿ وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب ﴾

ثم ان أمه أخذته منها وتوجهت به الى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عديّ بن النجار وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء (٣) فحضنته أم أيمن وكفله جده عبد المطلب ورقّ له رقة لم تعهد له في ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيماً في المستقبل وكان يكرمه غاية الاكرام ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم فكفله شقيق أبيهِ أبو طالب فكان له رحيماً وعليه غيورا وكان أبو طالب مقلاً من المال فبارك الله لهُ في قليله وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة

(١) يحركانه بسوط (٢) شبيهاً بالنقع وهو التراب
(٣) قرية بين مكة والمدينة وهي أقرب الى المدينة

كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى يشتغل بها الأطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان اذا أقبل وقت الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له

﴿ السفر الى الشام ﴾

ولما بلغت سنه عليه السلام اثنتى عشرة سنة أراد عمه وكفيله السفر بتجارة الى الشام فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه فرقّ له وأخذه معه وهذه هي الرحلة الأولى ولم يمكثوا فيها الا قليلا وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بصرى (١) بحيرا الراهب فسألهم عما رآهُ في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن فقالوا انه لم يظهر للآن وهذه العبارة كثيرًا ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٢)

﴿ حرب الفجار ﴾

ولما بلغت سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار وهي

(١) قرية على الحدود بين بلاد الشام و بلاد العرب

(٢) سورة البقرة

حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس وسببها انه كان للنعمان ابن المنذر ملك العرب بالحيرة (١) تجارة يرسلها كل عام الى سوق عكاظ (٢) لتباع له وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعة وشرف في قومه ليجيزها فجلس يوماً وعنده البراض بن قيس الكناني وكان فاتكا خليعاً خلعه قومه لكثرة شره وعروة بن عتبة الرّحال فقال من يجيزلي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ فقال البراض أنا أجيزها على بني كنانة فقال النعمان انما أريد من يجيزها على الناس كلهم فقال عروة أبيتَ اللعن (٣) أكلب خليع يجيزها لك أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد (٤) وتهامة (٥) فقال البراض أو تجيزها على

---

(١) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك فارس فتحها خالد بن الوليد في السنة الثانية عشرة (راجع اتمام الوفاء)

(٢) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيه تجارتها وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب وهي أشبه في ذلك بمعارض أوربا الآن

(٣) تحية عربية ومعناها باعدت كل ما يستحق المذمة

(٤) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها

(٥) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية والشرقي منها يسمى

كنانة يا عروة قال وعلى الناس كلهم فأسرّها في نفسه وتربص له حتى اذا خرج بالتجارة قتله غدراً ثم أرسل رسولا يخبر قومه كنانة بالخبر ويحذرهم قيساً قوم عروة وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همت لتدرك ثأرها حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة (١) فاقتتلوا ولما اشتد البأس وحميت قيس احتمت قريش بحرمها وكان فيهم رسول الله ثم إن قيساً قالوا لخصومهم انا لا نترك دم عروة فموعدنا عكاظ العام المقبل وانصرفوا الى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً فلما حال الحول جمعت قيس جموعها وكان معها ثقيف وغيرها وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش وهم حلفاء قريش وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم وكان على بني أمية حرب بن أمية وله القيادة العامة لمكانه في قريش شرفاً وسنا وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس ثم تناجزوا الحرب فكان يوماً من أشد أيام العرب هولا ولما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سمي يوم الفجار وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها ولكن أدركهم

البحرين والفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق

(١) موضع بين مكة والطائف

من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان وهكذا انتهت هذه الحرب التى كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدؤها صغيرات الأمور حتى ألف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم هـذه الضلالات بانتشار نور الاسلام بينهم

(حلف الفضول)

وعند رجوع قريش من حرب الفجار تداعوا لحلف الفضول فتم في دار عبد الله بن جدعان التيمى أحد رؤساء قريش وكان المتحالفون بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى ترد اليه مظلمته وقد حضر هذا الحلف رسول الله عليه السلام مع أعمامه وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة (لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله ابن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الاسـلام لأجبت) وذلك لأنه عليه السلام مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها وقد أقر دين الاسلام على كثير منها يرشدك الى هذا قوله عليه السلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا

﴿ رحلته الى الشام المرة الثانية ﴾

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر الى الشام المرة الثانية وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية (١) كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سماه قومه الأمين استأجرته ليخرج في مالها الى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره فسافر مع غلامها ميسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات ما حببه في قلب ميسرة غلام خديجة

﴿ زواجه خديجة ﴾

فلما قدما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سرّت من الأمين عليه السلام وأرسلت اليه تخطبه لنفسها وكان سنها نحو الأربعين وهى من أوسط قريش حسباً وأوسعهم مالا فقام الأمين عليه السلام مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب فزوجها عمها وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال : الحمد لله الذي

(١) من بني أسد بن عبد العزى بن قصي

جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضئضيء (١) معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس ثم ان ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفا ونبلاً وفضلا وان كان في المال قلّ فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردّة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا) وعلى ذلك تم الأمر . وقد كانت متزوّجة قبله بأبي هالة توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب المصطفى عليه السلام

﴿ بناء البيت ﴾

ولما بلغت سنه عليه السلام خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فانها كانت رضيمة (٢) فوق القامة فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم فقال لهم الوليد بن المغيرة أتريدون بهدمها الاصلاح أم الاساءة قالوا بل الاصلاح قال ان الله لا يهلك المصلحين وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس اسماعيل وهناك وجدوا صخافا نقش فيها كثير من

(١) أصل (٢) بناء رضيم مبني بالصخر اه من أساس البلاغة

الحكم على عادة من يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين ثم ابتدؤا في البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغيّ ولا بيع ربا وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل وكان الذي يلي البناء نجار رومى اسمه باقوم وقد خصص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون اليه الحجارة وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد اسماعيل فأخرجوا منها الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة ولما تم البناء ثماني عشرة ذراعا بحيث زيد فيه عن أصله تسع أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يصعد اليه الا بدرج أرادوا وضع الحجر الاسود موضعه فاختلف أشرافهم فيمن يضعه وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال وكان أسنّ رجل في قريش اذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومى عم خالد بن الوليد فقال لهم يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه فقالوا نكل الأمر لأول داخل فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام فاطمأن الجميع له لما يعهدون فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا هذا الأمين رضيناه هذا محمد لأنهم كانوا يتحاكمون اليه اذ كان لا يداري ولا يماري فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم وضع فيه الحجر وأمرهم

برفعه حتى انتهوا الى موضعه فأخذه ووضعه فيه وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيرا ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن يمن الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم الى الخير وحكيم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يرضي جميعهم ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا لأن البيت قبلة العرب وكعبتهم التى يحجون اليها فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة وهو أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم قال تعالى في سورة آل عمران (ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) وكان يلي أمره بعد ولد اسماعيل قبيلة جرهم فلما بغوا وظلموا من دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ووليته خزاعة حيناً من الدهر ثم أخذته منهم قريش في عهد قصيّ بن كلاب و بسببه أمنوا في بلادهم فكانت قبائل العرب تهابهم واذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين وامتنّ الله عليهم بذلك في تنزيله فقال في سورة القصص (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم)

﴿ معيشته عليه السلام قبل البعثة ﴾

لم يرث عليه السلام من والده شيئاً بل ولد يتيما عائلا فاسترضع

في بني سعد ولما بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية وكذلك لما رجع الى مكة كان يرعاها لاهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بد منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية ولذلك ترى جميع الشرائع الالهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعد عنها وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس في الدنيا وكذلك كان موسى وابراهيم وكانت حالتهم في صغرهم ليست ذات سعة بل كلهم سواء تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها وذلك سبب البلايا والمحن وكذلك رعاية الغنم فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادق المصدوق في حديث للبخاري وهذه أيضاً من بالغ الحكم فان الانسان اذا استرعى الغنم وهي أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذب أولا من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي فيكون في أعدل الأحوال . ولما شبّ عليه السلام كان يتاجر وكان شريكه السائب بن أبي السائب وذهب بالتجارة لخديجة رضي الله عنها الى الشام على جعل يأخذه . ولما شرفت خديجة بزواجه وكانت ذات

يسار عمل في مالها وكان يأكل من نتيجة عمله وحقق الله ما امتنّ عليه به في سورة الضحى بقوله جل ذكره (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) فالايواء والاغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة هداه للكتاب والايمان ودين ابراهيم عليه السلام ولم يكن يدرى ذلك قبل . قال تعالى في سورة الشورى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا)

﴿ سيرته في قومه قبل البعثة ﴾

كان عليه السلام أحسن قومه خلقاً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال حتى كان أفضل قومه مروءة وأكرمهم مخالطة وخيرهم جوارا وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً فسموه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء حتى شهد له بذلك ألدّ أعدائه النضر ابن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر . قال

ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لا فقال هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.. ورد ذلك في أول صحيح البخاري وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها (١) وبغضت اليه الأوثان بغضاً شديدا حتى ما كان يحضر لها احتفالا أو عيدا مما يقوم به عبادها وقال عليه السلام (لما نشأت بغضت اليّ الأوثان وبغض اليّ الشعر ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله الا مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته قلت ليلة لغلام كان يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس ولم أقض شيئاً ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك) وكان عليه السلام لا يأكل ما ذبح على النصب (٢) وحرم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه

(١) الشفاء للقاضي عياض (٢) هي حجارة تنصب تنصب عليها دماء الذبائح وتعبد

شيوعاً عظيماً وذلك كله من الصفات التي يحلي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقي وحيه فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيسند اليهم وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم . عليهم من الله أفضل الصلوات وأتم التسليمات

﴿ ما أكرمه الله به قبل النبوّة ﴾

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين فلما صار بينهم صارت غنيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته

واذا سخر الاله أناساً لسعيد فانهم سعداء

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره واخراج حظ الشيطان منه وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى فمن استبعد ذلك كان قليل النظر لا يعرف من قوة الله شيئاً لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب ومن المكرمات الالهية تسخير الغمامة له في سفره الى الشام حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مشاركاً

له في سفره وهـذا ما حببه الى خديجة حتى خطبته لنفسها وتيقنت أن له في المستقبل شأناً ولذلك لما جاءته النبوة كانت أسرع الناس إيمانا به ولم تنتظر آية أخرى زيادة على ما علمتـه من مكارم الأخلاق وما سمعته من خوارق العادات ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والاشجار (١) فكان اذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيناء ويفضي الى الشعاب وبطون الأودية فلا يمر بحجر ولا شجر إلا سمع الصلاة والسلام عليك يارسول الله وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً وقد حدث بذلك عن نفسه وليس في ذلك كبير اشكال فقد سخر الله الجمادات للأنبياء قبله فعصا موسى التقمت ما صنع سحرة فرعون بعـد أن تحولت حية تسعى ثم رجعت كما كانت ولما ضرب بها الحجر نبع منـه الماء اثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباط بني اسرائيل عين وكذلك غيره من الأنبياء سخر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدل العقلاء على عظيم قدرهم وخطارة شأنهم

﴿ تبشير التوراة به ﴾

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن ونوّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم

(١) السيرة الحلبية

فما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطابا لسيدنا موسى عليه السلام (١)
« وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامي في فمه
ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي
فأنا الذي أنتقم منه فأما النبي الذي يجتريء عليّ بالكبرياء ويتكلم
باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل واذا أحببت أن تميز
بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك ان ما قاله ذلك النبي باسم
الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لاتخشاه » ويقول
اليهود ان هذه البشارة ليوشع بن نون خليفة موسى عليه السلام مع أنهم
كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبيا آخر غير المسيح فانهم (٢) أرسلوا
ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له أنت ايليا فقال لا
فقالوا أنت المسيح فقال لا فقالوا أنت النبي فقال لا فقالوا ما بالك اذاً
تعمد اذا كنت لست ايليا ولا المسيح ولا النبي فهذه تدل على أن
التوراة تبشر بايليا والمسيح ونبي لم يأت حتى زمن المسيح ثم ان التوراة
تقول في صفة النبي انه مثل موسى وقد نصت في آخر سفر التثنية على
أنه لم يقم في بني اسرائيل نبي مثل موسى وورد في هذه البشارة أن

---

(١) الاصحاح الثامن سفر التثنية
(٢) الاصحاح الأول من انجيل يوحنا

النبي الذي يفتري على الله يقتل ويشبه ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) (١) ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الألدّاء من مشركين ويهود ثلاثا وعشرين سنة يدعوهم فيها الى الله ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطميناً لخاطره في سورة المائدة (والله يعصمك من الناس) أكان يعجز الله وهو القادر على كل شيء أن يعاقب من ينسب اليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى (أم يقولون افترى على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور) وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التى نعرف بها صدق النبى من كذبه وهي الاخبار بما سيأتي وقد أخبر النبى عليه السلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها ومنها مالا ينفع معه الحدس والتخمين كالاخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة ملكهم فالاخبار اذاً بأن الروم سيردون ما فقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه وقد حقق الله الخبر

---

(١) عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه

فاستحق الصديق الرهن وهـذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله ان شاء الله تعالى

وروى القاضي عياض في الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله ابن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليـه السلام فقال أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب (١) في الاسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفاً

وروى مثله عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تعمه الرياسـة حتى يترك الدين القويم وكذلك كعب الأحبار وفي بعض طرق الحديث ولا صخب في الأسواق ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعـل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة مقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعـدل سيرته والحق شريعته والهـدى إمامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة

---

(١) شديد الصوت

وأرفع به بعد الخمالة وأسمي به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متباينة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس . وقد أخبر عليه السلام عن صفته في التوراة فقال وهو الصادق الأمين عبدي أحمد المختار مولده مكة ومهاجره بالمدينة أو قال طيبة وأمته الحامدون لله على كل حال

﴿ تبشير الانجيل ﴾

بشر عيسى عليه السلام قومه في الانجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف (واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق الا على نبينا فقال انهُ يوبخ العالم على خطيئته وانه يعلمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) وقد ورد في انجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفتهُ حجب (١) الجهالة ذكر اسم الرسول عليه السلام صراحة

(١) ترجم الى العربية وهو الآن مطبوع بمصر

﴿ حركة الأفكار قبل البعثة ﴾

وهـذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينـة برسول منتظر فقـد حدث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا انما دعانا للاسلام مع رحمة الله تعالى لنا ما كنا نسمع من أحبار يهود كنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عنـدهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم فكثيرًا ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله محمدًا أجبنا حين دعانا الى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم اليه فآمنا وكفروا وانما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وارم لأن من صفته عليه السلام في كتبهم أن هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيم فيحق عليهم العـذاب في الدنيا والآخرة . وكان أميـة بن أبي الصلت المتنصر العربي كثيرا ما يقول اني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . وحدث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيسًا فكان يقول له يا سلمان ان الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد يخرج من جبال تهامة علامته

أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . وهذا الحديث كان من أسباب اسلام سلمان ولما راسل عليه السلام ملوك الأرض لم يهن كتابه الا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب أما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر وقيصر ملك الروم فأكرموا وفادة رسله ومنهم من آمن كالنجاشي ومنهم من رد رداً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ومنهم من هادى كالمقوقس ولم يكن عليه السلام في قوة يرهب بها هؤلاء الملوك اللهم ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشر برسول يأتي من بعده ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن . أما ما سمع من الهواتف والكهان قبيل زمنه فهو مالا يدخل تحت حصر وليس بعد ما ذكرته لك زيادة لمستكثر ومع ذلك كله فالأعمال التى جاد الله بها على يديه والأقوال التى أتانا بها أعظم مقو لحجته ومؤيد لدعوته . وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمله ترشد هداك الله الى الصراط السوي

﴿ بدء الوحي ﴾

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهو أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيرًا ونذيرًا ليخرجهم من ظلمات الجهالة الى نور العلم وكان ذلك في أول

فبراير سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي . تبين بعد دقة البحث أن ذلك كان في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو سنة ٦١٠ وأول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل الى درجة الكمال ومن الصعب جداً على البشر تلقى الوحي من الملك لأول مرة ثم حبب اليه عليه السلام الخلاء ليبتعد عن ظلمات هذا العالم وينقطع عن الخلق الى الله فان في العزلة صفاء السريرة وكان يخلو بغار (١) حراء فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد فتارة عشراً وتارة أكثر الى شهر وكانت عبادته على دين أبيه ابراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده فاذا فرغ رجع الى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل اذ ظهر له شخص وقال أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله الى هذه الأمة ثم قال له اقرأ قال ما أنا بقارئ فانه عليه السلام أمي لم يتعلم القراءة قبلا فأخذه فغطه بالنمط الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال اقرأ فقال ما أنا بقارئ فأخذه فغطه ثانية ثم أرسله فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال

---

(١) جبل على مقربة من مكة

(اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) فرجع بها عليه السلام يرجف فؤاده مما ألمّ به من الروع الذي استلزمته مقابلة الملك لأول مرة فدخل على خديجة زوجه فقال زملوني (١) زملوني لتزول عنه هذه القشعريرة فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي لأن الملك غطه حتى كاد يموت ولم يكن له عليه السلام علم قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت كلا والله مايخزيك الله أبدًا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ولامراء ان الله اختارك لهداية قومك ولتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممن لهم علم بحال الرسل ممن اطلعوا على كتب الأقدمين فانطلقت به حتى أتت ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال يا ابن أخي ما ترى فأخبره عليه السلام خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي نزل الله على موسى لأنه يعرف أن رسول الله

---

(١) لفوني في ثوب

الى أنبيائه هو جبرائيل ثم قال يا ليتني فيها جذعاً (شابا جلدا) إذ يخرجك قومك من بلادك التي نشأت بها لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم فاستغرب عليه السلام مانسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق وصدق القول حتى سموه الأمين وقال أو مخرجي هم قال لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به الا عودي . وقد نطق بذلك القرآن الكريم قال تعالى في سورة ابراهيم (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) ولتمام تصديق ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه السلام قال وان يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً (معضداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفي

﴿ فترة الوحي ﴾

وفتر الوحي مدة لم يتفق عليها المؤرخون وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً ليشتد شوق الرسول للوحي وقد كان فان الحال اشتدت به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمي نفسه منها حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراه نعمته الكبرى وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه فيتبدى له الملك قائلا أنت رسول الله حقا فيطمئن خاطره ويرجع عما عزم عليه حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد اليه الوحي

﴿ عود الوحي ﴾

فبينما هو يمشي إذ سمع صوتاً من السماء فرفع اليه بصره فاذا الملك الذي جاءه بحراء جالس بين السماء والأرض فرعب منه لتذكر ما فعله في المرة الأولى فرجع وقال دثروني دثروني فأنزل الله تعالى عليه (يا أيها المدثر قم فأنذر) حذر الناس من عذاب الله ان لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم (وربك فكبر) خصه بالتعظيم ولا تشرك معه في ذلك غيره (وثيابك فطهر) لتكون مستعدًا للوقوف بين يدي الله اذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذرًا نجساً (والرُّجزَ فاهجر) أي اهجر أسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ أمره (ولا تمنن تستكثر) ولا تهب أحدًا هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب له أكثر مما وهبت فهذا ليس من شأن الكرام (ولربك فاصبر) على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم الى الله

﴿ الدعوة سراً ﴾

فقام عليه السلام بالأمر ودعا لعبادة الله أقواماً جفاة لا دين لهم الا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر ولا حجة لهم الا أنهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم وليس عندهم من مكارم الأخلاق الا ما كان

مرتبطا بالعزة والأنفة وهو الذي كثيرًا ما كان سببًا في الغارات والحروب واهراق الدماء فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه فذوو العقول السليمة بادروا الى التصديق وخلع الأوثان ومن أعمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تسلب منه عظمته . وكان أول من سطع عليه نور الاسلام خديجة بنت خويلد زوجه وعلي بن أبي طالب ابن عمه وكان مقيماً عنده يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره لأن قريشاً كانوا قد أصابهم مجاعة وكان أبو طالب مقلاً كثير الأولاد فقال عليه السلام لعمه العباس بن عبد المطلب ان أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا اليه لنخفف من عياله تأخذ واحدًا وأنا واحدًا فانطلقا وعرضا عليه الأمر فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب وأخذ عليه السلام علياً فكان في كفالته كأحد أولاده الى أن جاءت النبوة وقد ناهز الاحتلام فكان تابعاً للنبي في كل أعماله ولم يتدنس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان واتباع الهوى وأجاب أيضاً زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي مولاه عليه السلام وكان يقال له زيد ابن محمد لأنه لما اشتراه أعتقه وتبناه وكان المتبني معتبراً كابن حقيقي يرث ويورث وأجابه أيضاً أم أيمن حاضنته التي زوجها لمولاه زيد . وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يعلم

ما اتصف به من مكارم الأخلاق ولم يعهد عليه كذباً منذ اصطحبا فأول ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق وقال بأبي أنت وأمي أهل الصدق أنت أشهد أن لا اله الا الله وانك رسول الله . كان رضي الله عنه صدرا معظماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق وكان من أعف الناس سخياً يبذل المال محبباً في قومه حسن المجالسة ولذلك كله كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير فكان يستشيره في أموره كلها وقال في حقه (ما دعوت أحدًا الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر) وكانت الدعوة الى الاسلام سرًّا حذرًا من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم فكان عليه السلام لا يدعو الا من يثق به ودعا أبو بكر الى الاسلام من يثق به من رجال قريش فأجابه جمع (منهم) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي ولما علم عمه الحكم باسلامه أوثقه كتافاً وقال ترغب عن دين آبائك الى دين مستحدث والله لا أحلك حتى تدع ما أنت عليه فقال عثمان والله لا أدعه ولا أفارقه فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره (ومنهم) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي وأمه صفية بنت عبد المطلب وكان عم الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع الى دين آبائه فقواه الله

بالثبات وكان شابا لا يتجاوز سن الاحتلام (ومنهم) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب الزهريّ القرشيّ وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسماه عليه السلام عبد الرحمن (ومنهم) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب الزهري القرشي ولما علمت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية باسلامه قالت له ياسعد بلغني أنك قد صبأت فوالله لا يظلني سقف من الحرّ والبرد وان الطعام والشراب عليّ حرام حتى تكفر بمحمد وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا اليه أمر أمه فنزل في ذلك تعليما قول الله تعالى في سورة العنكبوت (ووصينا الانسان بوالديه حسناً وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وصاه جل ذكره بوالديه وأمره بالاحسان اليهما مؤمنين كانا أو كافرين أما اذا دعواه للاشراك فالمعصية متحتمة لأن كل حق وان عظم ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ثم قال اليّ مرجعكم من آمن منكم ومن أشرك فأجازيكم حق جزائكم وفي ختام هذه الآية فوائد تان التنبيه على أن الجزاء الى الله فلا تحدث نفسك بجفوتهما لاشراكهما والحض على الثبات في الدين لئلا ينال شر جزاء في الأخرى (ومنهم) طلحة بن عبيد الله ابن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي وقد

كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ورأى الدين متيناً بعيداً عما عليه العرب من المثالب بادر الى الاسلام (وممن) سبقوا الى الاسلام صهيب الرومى وكان من الموالي وعمار بن ياسر العنسي وقد قال رضي الله عنه رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه الا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سمية (ومن) السابقين الأولين عبد الله بن مسعود كان يرعى الغنم لبعض مشركي قريش فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو اليه عليه السلام من مكارم الأخلاق ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يحجب ويمشي أمامه ويستره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام ويلبسه نعليه اذا قام فاذا جلس أدخلهما في ذراعيه (ومن) السابقين الأولين أبو ذر الغفاري وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ولما بلغه مبعث رسول الله قال لأخيه اركب الى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذي يزعم انهُ نبى يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ثم رجع الى أبي ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر فقال ما شفيتني مما أردت فتزود وحمل قربة له فيها ماء حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبى صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه وكره أن يسأل

عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل من يخاطب رسول الله حتى اذا أدركه الليل رآه علي فعرف أنه غريب فأضافه عنده ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا يسأل الضيف عن سبب قدومه الا بعد ثلاث) فلما أصبح احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى فعاد الى مضجعه فمرّ به عليّ فقال أما نال للرجل أن يعرف منزله الذي أضيف به بالأمس فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى اذا كان اليوم الثالث عاد على مثل ذلك ثم قال له عليّ ألا تحدثني ما الذي أقدمك قال ان أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدني فعلت ففعل فأخبره قال فانه حق وهو رسول الله فاذا أصبحت فاتبعني فاني ان رأيت شيئًا أخافه عليك قمت كأني أريق الماء فان مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري قال والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدًا رسول الله فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكبّ عليه وقال ويلكم أو لستم تعلمون أنه من غِفار وان طريق تجارتكم الى الشام عليه فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكبّ العباس عليه

(رواه البخاري) كان رضي الله عنه من أصدق الناس قولا وأزهدهم في الدنيا (ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوي القرشي وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وأم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية زوج العباس بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى القرشى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه أم سلمة وعثمان بن مظعون الجمحي القرشى وأخواه قدامة وعبد الله والأرقم بن أبي الأرقم المخزومى القرشى (ومن) السابقين الأولين خالد بن سعيد ابن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي القرشى . كان أبوه سيد قريش اذا اعتم لم يعتم قرشى إجلالاً له وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية فأدركه رسول الله وخلصه منها فجاء اليه وقال الام تدعو يا محمد قال أدعوك الى عبادة الله وحده لاشريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن وأن لا تقتل نفساً حرّم الله قتلها الا بالحق وأن لا تقرب مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأن توفي الكيل والميزان بالقسط وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوي قربك وأن توفي لمن عاهدت فأسلم رضى الله عنه وحينئذ غضب عليه أبوه

وآذاه حتى منعه القوت فانصرف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد . وهكذا دخل هؤلاء الأشراف في دين الاسلام ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم وذوي الثروة منهم ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه السلام كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم والذين اتبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقات مع اتباع الرسول بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالا وأنعم عيشة اللهم ليس ذلك الا من هداية الله وسطوع أنوار الدين عليهم حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى

﴿ الجهر بالتبليغ ﴾

مضت كل هذه المدة والنبي عليه السلام لا يظهر الدعوة في مجامع قريش العمومية ولم يكن المسلمون يتمكنون من إظهار عبادتهم حذرًا من تعصب قريش فكان كل من أراد العبادة ذهب الى شعاب مكة يصلي مستخفيًا . ولما دخل في الدين ما يربو على الثلاثين وكان من اللازم

اجتماع الرسول بهم ليرشدهم ويعلمهم اختار لذلك دار الارقم بن أبي الأرقم وهو ممن ذكرنا اسلامهم ومكث عليه السلام يدعو سرًا حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فبدل الدعوة سرًا بالدعوة جهرًا ممتثلا أمر ربه واثقًا بوعده ونصره فصعد على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريشًا فقال عليه السلام أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبًا قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبًا لك ألهذا جمعتنا فأنزل الله في شأنه (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامرأتهُ حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب في نوادي النساء . ثم نزل عليه في سورة الشعراء (وأنذر عشيرتك الأقربين) وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك) أي العشيرة الأقربون (فقل اني بريء مما تعملون) فجمعهم عليه السلام وقال لهم ان الزائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ولو غررت الناس

جميعاً ما غررتكم والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوءا وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبي لهب الذي كان خصما لدوداً فانه قال خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب فان أسلمتموه اذاً ذللتم وان منعتموه قتلتم فقال أبو طالب والله لنمنعه ما بقينا ثم انصرف الجمع

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرت منه قريش واستهزؤا به في مجالسهم فكان اذا مر عليهم يقولون هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء لا يزيدون على ذلك فلما عاب آلهتهم وسفه عقولهم وقال لهم والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم ابراهيم ثارت في رؤسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم فذهبوا الى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه فطلبوا منه أن يخلي بينهم وبينه أو يكفه عما يقول فردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله لما يريده لا يصده عن مراده شيء فتزايد الأمر وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحث بعضهم بعضاً على ذلك ثم مشوا الى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له ان لك سناً وشرفاً ومنزلة منا وانا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم

تنهه عنا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فانهم كانوا اذا احتجوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له قال تعالى في سورة البقرة (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) وقال في سورة المائدة (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) وقال في سورة لقمان (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدالة على التعصب والعناد قال (قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون) فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية فهاج ذلك أضغانهم وقالوا لأبي طالب إما أن تكفه أو نتازله واياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على أبي طالب فراق قومه ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخي ان القوم جاؤني فقالوا لي كذا فأبق على نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن

عمه خاذله فقال والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هـذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ثم بكى وولى فقال أبو طالب أقبل يا ابن أخي فأقبـل عليه فقال اذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك

﴿ الايذاء ﴾

ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدة خصوصاً اذا ذهب الى الصلاة عند البيت وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين (فأولهم) وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى قال يوماً يا معشر قريش ان محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم اني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله فاذا سجد في صـلاته رضخت به رأسه فأسلموني عنـد ذلك أو امنعوني فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صـلاته وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من

قريش فقالوا ما لك يا أبا الحكم قال قمت اليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لي فحل من الابل والله ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني فلما ذكر ذلك لرسول الله قال ذاك جبريل ولو دنا لأخذه وكان أبو جهل كثيراً ما ينهي الرسول عن صلاته في البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلي ألم أنهك عن هذا فأغلظ له رسول الله القول وهدده فقال أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا فأنزل الله تهديدا له في آخر سورة اقرأ (كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه سندع الزبانية كلا لا تطعه واسجد واقترب) ومن أذيته للرسول ماحكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري قال كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي فقال أبو جهل ألا رجل يقوم الى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد فقام عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ولم يزل عليه السلام ساجدا حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح فقال اللهم عليك الملأ من قريش وسمى أقواماً قال ابن مسعود فرأيتهم قتلوا يوم بدر . ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن هذا ابتاع أجملا من رجل يقال له الأراشي فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع

قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلوه على رسول الله لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال من هذا قال محمد فخرج منتقعاً لونه فقال له الرسول أعط هذا حقه فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت قال ويلكم والله ما هو الا أن ضرب عليّ بابي حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وان فوق رأسي فحلا من الابل ما رأيت مثله (ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الأباعد فكان يرمي القذر على بابه لأنه كان جاراً له فكان الرسول يطرحه ويقول يا بني عبد مناف أيّ جوار هذا وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية فكانت كثيراً ما تسب رسول الله وتتكلم فيه بالنمائم وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب (ومن) المستهزئين عقبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله وكان يعمل معه كأبي لهب صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه السلام والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فبلغ ذلك أبيّ بن خلف الجمحي القرشي وكان صديقاً له فقال ما شيء بلغني عنك قال لا شيء دخل منزلي رجل

شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له قال أبيّ وجهي من وجهك حرام ان لقيت محمداً فلم تطأ عنقه وتبزق في وجهه وتلطم عينه فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه فى سورة الفرقان (ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) ومن أشد ما صنعه ذلك الشقى برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال بينما النبى يصلي في حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقاً شديدًا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال (أتقتلون رجلا أن يقول ربيَ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم) (ومن) جماعة المستهزئين العاصي بن وائل السهمي القرشى والد عمرو بن العاص كان شديد العداوة لرسول الله وكان يقول غرّ محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا الا الدهر فقال الله ردًّا عليه في دعواه في سورة الجاثية (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ما لهم بذلك من علم ان هم الاّ يظنون) وكان عليه دين لخباب بن الأرت أحد رجال المسلمين فتقاضاه إياه فقال العاصى أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يبتغى أهلها من ذهب أو فضة أو

ثياب أو خدم قال خباب بلى قال فأنظرني الى هذا اليوم فسأوتي مالاً وولدًا وأقضيك دينك فأنزل الله فيه في سورة مريم (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا سنكتب ما يقول ونمدّ له من العذاب مدًّا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) (ومن) جماعة المستهزئين الأسود بن عبد يغوث الزهري القرشي من بني زهرة أخوال رسول الله كان اذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين ثيابهم رثة وعيشهم خشن وكان يقول لرسول الله سخرية أما كلمت اليوم من السماء (ومنهم) الأسود بن المطلب الأسدي ابن عم خديجة كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة التطفيف (ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون) (ومنهم) الوليد بن المغيرة عم أبي جهل كان من عظماء قريش وفي سعة من العيش سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لقومه بني مخزوم والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى فقالت قريش صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها فقال أبو جهل أنا أكفيكموه

فتوجه وقعد اليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يهوس وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط وتزعمون انه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب فقالوا في كل ذلك اللهم لا ثم قالوا فما هو ففكر قليلا ثم قال ما هو الا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فارتج النادى فرحاً فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدثر مخاطباً لرسوله (ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا انه فكر وقدّر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدّر . ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر . سأصليه سقر) وأنزل فيه أيضاً في سورة ن (ولا تطع كل حلاف) كثير الحلف وكفى بهذا زاجرا لمن اعتاد الحلف (مهين) حقير وأراد به الكذاب لأنه حقير في نفسه (هماز) عياب طعان (مشاء بنميم) ينقل الأحاديث للافساد بين الناس (مناع للخير معتد أثيم . عتلّ) غليظ جاف (بعد ذلك زنيم) دخيل (أن كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم) كناية عن الإذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه ولذلك اشتقوا منه كل ما يدل

على العظمة كالأنفة وهي الحمية فالوسم على أشرف عضو دليل الاذلال والاهانة (ومن) المستهزئين النضر بن الحارث العبدري من بني عبد الدار بن قصيّ كان اذا جلس رسول الله مجلساً للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر هلموا يا معشر قريش فانني أحسن منه حديثاً ثم يحدث عن ملوك فارس وكان يعلم أحاديثهم ويقول ما أحاديث محمد الا أساطير الأولين وفيه نزل في سورة لقمان (ومن الناس من يشتري لهوَ الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزُوا أولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم) وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى في التنزيل في سورة الحجر (انا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله الهاً آخر فسوف يعلمون) وقد وضع الله جل ذكره الوعد في صورة الماضي للتحقق من وقوعه لأن الآية مكية وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة فمنهم من قتل كأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة فهلك منها كأبي لهب والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة

﴿ اسلام حمزة ﴾

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لاسلام عمه حمزة بن عبد المطلب

فقد أدركته الحمية عند ما عيرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه فتوجه الى ذلك الشقي وغاضبه وسبه وقال كيف تسب محمدًا وأنا على دينـه ثم أنار الله بصـيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلامًا وأشدهم غيرة على المسلمين وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي أسد الله

وكما أوذي الرسول عليه الصلاة والسلام أوذي أصحابه لاتباعهم له وخصوصًا من ليس له عشيرة تحميه وترد كيد عدوه عنه وكل هذا الأذى كان حلوًا في أعينهم ما دام فيه رضا الله فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتم أمره على أيديهم وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها كما قال جل ذكره في سورة القصص (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وقد حقق ما أراد (ومن) الذين أوذوا في الله بلال بن رباح كان مملوكًا لأمية بن خلف الجمحي القرشي فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول أحد أحد لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء وهي الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليـه قطعة لحم لنضجت ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صـدره . ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول أحد أحد . مر به أبو بكر يومًا فقال

يا أمية أما تتقى الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى فاشتراه منه وأعتقه فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل (فأنذرتكم نارًا تلظى . لا يصلاها الا الأشقى) أمية بن خلف (الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى) الصديق (الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى . الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله . وقد نبه الله جل ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن الا ابتغاء وجه ربه وكفى بهذا شرفًا وفضلا للصديق رضي الله عنه وأرضاه وقد أعتق غير بلال جماعة من الأرقاء أسلموا فعاقبهم مواليهم (ومنهم) حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب حتى لا يدري ما يقول وأبو فكيهة كان عبدًا لصفوان بن أمية بن خلف (ومنهم) امرأة تسمى زُنيرة عذبت في الله حتى عميت فلم يزدها ذلك الا إيمانًا وكان أبوجهل يقول ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم لو كان ما أتى به محمد خيرًا ما سبقونا اليه أفتسبقنا زُنيرة الى رشد فأنزل الله في سورة الأحقاف (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم) (وممن) أعتق أبو بكر بعد شرائه أم عنيس كانت أمة لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث (وممن) عذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه كانوا يعذبون بالنار فمر بهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صبرًا آل ياسر فموعدكم الجنة اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت أما أبو عمار وأمه فماتا تحت العذاب رحمهما الله وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر فان أبا جهل كان يجعل له دروع الحديد في اليوم الصائف ويلبسه إياها فقال المسلمون كفر عمار فقال عليه السلام عمار ملئ إيمانًا من فرقه الى قدمه وأنزل الله في شأنه استثناء في حكم المرتد فقال جل ذكره في سورة النحل (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) (وممن) أوذي في الله خباب بن الأرت سبي في الجاهلية فاشترته أم أنمار وكان حدادًا وكان النبي يألفه قبل النبوة فلما شرفه الله بها أسلم خباب فكانت مولاته تعذبه بالنار فتأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر فلا يزيده ذلك الا ايمانًا وجاء خباب مرة الى رسول الله وهو متوسد برده في ظل الكعبة فقال يا رسول الله ألا تدعو الله لنا فقعد عليه السلام محمرًا وجهه فقال انه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه وليظهرن الله تعالى هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت (١) لا يخاف الا الله

(١) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر وقيل موضع

والذئب على غنمه قال ذلك عليه السلام وهو في هذه الحال الشديدة التي لا يتصور فيها أعقل العقلاء وأنبل النبلاء قوة منتظرة أو سعادة مستقبلة اللهم الا أن ذلك وحيٌ يوحى اليه ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (وممن) أوذي في الله أبو بكر الصديق ولما اشتد عليه الأذى أجمع أمره على الهجرة من مكة الى جهة الحبشة فخرج حتى أتى برك الغماد فلقيه ابن الدُّغنة وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارة فقال الى أين يا أبا بكر فقال أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي فقال ابن الدغنة مثلك يا أبا بكر لا يخرج انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل ابن الدغنة معه وطاف في أشراف قريش فقال لهم أبو بكر لا يخرج مثله أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدُّغنة وقالوا له مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا

في أقصى أراضي هجر اه من ياقوت

يستعلن فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا انا كنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وانا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل وان أبى الا أن يعلن ذلك فسله أن يرد اليك ذمتك فانا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الى ذمتي فاني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر فاني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (رواه البخاري) وكان ذلك سببا لايصال أذى عظيم الى أبي بكر رضي الله عنه وبالجملة فلم يخل أحد من المسلمين من أذية لحقته ولكن كل ذلك ضاع سدى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم فانهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل ارجاعهم ولكن وفقهم الله لادراك حقيقة الايمان فرأوا كل شيء دونه سهلاً

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعاً بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم اجتمعوا للشورى فيما بينهم فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيدًا مطاعاً في قومه يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا فقالوا يا أبا الوليد فقم اليه فكلمه فذهب الى رسول الله وهو يصلي في المسجد وقال يا ابن أخي انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال عليه السلام قل يا أبا الوليد أسمع فقال يا ابن اخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وان كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى فقال عليه السلام لقد فرغت يا أبا الوليد قال نعم قال فاسمع مني فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت

(بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب

فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون قل انما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ أنما إلهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم . فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألاّ تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون) فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك فلما رجع عتبة سألوه فقال والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لكلامه الذي سمعت نبأ فان تصبه العرب فقد كفيتموه

بغيركم وان يظهر على العرب فعزه عزكم فقالوا لقد سحرك محمد فقال هذا رأيي (ثم) عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركونه في عبادته فأنزل الله في ذلك (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين) فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله فأيسوا منه وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد فيأتي بقرآن غيره أو يبدّله فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى الي) وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به وهي انه بينما الرسول عليه السلام مع كبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم الأعمى وهو ممن أسلموا قديماً والنبي مشتغل بالقوم وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم فقال له عبد الله يا رسول الله علمني مما علمك الله وأكثر عليه القول فشق ذلك على الرسول وكره قطعه لكلامه وخاف عليه السلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة عبس (عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من

استغنى فأنت له تصدّى . وما عليك ألا يزكي . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى . فأنت عنه تلهى) فما عبس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها في وجه فقير وكان اذا أقبل عليه عبد الله ابن أم مكتوم يقول له مرحباً بمن عاتبني فيه ربي

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تقبل منهم أرادوا أن يدخلوا من باب آخر وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات فاجتمعوا وقالوا يا محمد ان كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك وهي أن تشق لنا القمر فرقتين فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين فقال رسول الله اشهدوا وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأولين رويت عنه من طرق كثيرة ورواها عبد الله بن عباس وغيره ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى أول سورة القمر (اقتربت الساعة وانشق القمر) فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم لقد سحركم ابن أبي كبيشة فأنزل الله فيهم (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك الا التعنت والعناد فمنها أن قالوا كما في سورة الاسراء (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي

بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء وان نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) ولم يجبهم الله الا بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرًا رسولا) لأن الله علم ما تكنه جوانحهم من التعصب والعناد فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جل ذكره في سورة الأنعام (وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون) وكيف يرجى الخير ممن قالوا كما في سورة الأنفال (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه وهذه سنة من سنن الأنبياء اذا رأوا من طلاب الآيات عنادًا وانهم يطلبونها تعجيزًا لا يسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحل بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الاسراء (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هيرودس طلب منه آية فلم يجبه الى طلبه فلما رأى ذلك سخر منه وردّه الي عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه وذلك مذكور في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل لوقا (هذا) ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان تحوّلوا الى سياسة القوة التي اختارها قوم ابراهيم عند ماعجزوا عنه حيث قالوا (حرّقوه وانصروا آلهتكم) كما في سورة الأنبياء أما

هؤلاء فازدادوا بالأذى على كل من أسلم رجاء صدهم عن اتباع الرسول عليه السلام ولم يتركوا باباً إلا ولجوه فقال عليه السلام لأصحابه تفرقوا في الأرض فان الله سيجمعكم فسألوه عن الوجه فأشار الى الحبشة

﴿ هجرة الحبشة الأولى ﴾

فعند ذلك تجهز ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه السلام وهذه هي أول هجرة من مكة وعدة أصحابها عشرة رجال وخمس نسوة وهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وأبو سلمة وزوجه أم سلمة وأخوه لأمه أبو سبرة بن أبي رهم وزوجه أم كلثوم وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهيل وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون ومصعب بن عمير وسهيل بن البيضاء والزبير بن العوام وجلهم من قريش وكان عليهم فيما روي ابن هشام عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله ولما انتهوا الى البحر استأجروا سفينة أوصلتهم الى مقصدهم فأقاموا آمنين من أذى يلحق بهم من المشركين ولم يبق مع النبي عليه السلام الا القليل

﴿ إسلام عمر ﴾

وفي ذلك الوقت أسلم الشهم الهمام عمر بن الخطاب العدوي القرشي

بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم . قالت ليلى احدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا فلما ركبت بعيري أريد أن أتوجه الى أرض الحبشة اذا أنا به فقال لي الي أين يا أم عبد الله فقلت قد آذيتمونا في ديننا نذهب في أرض الله حيث لانؤذي فقال صحبكم الله فلما جاء زوجي عامر أخبرته بما رأيت من رقة عمر فقال ترجين أن يسلم والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم فانهُ قال قبيل إسلامه اللهم أعزّ الاسلام بعمر وكان إسلامه في دار الأرقم ابن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه السلام فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري (ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر) فانه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد ففعل وقد أدرك الكفار كآبة شديدة حينما رأوا عمر أسلم وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع منهم حول داره ينتظرونه فجاء العاص بن وائل السهمي وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير فقال لعمر ما بالك فقال زعم قومك انهم سيقتلونني أن أسلمت قال لا سبيل اليك فأنا لك جار فأمن عمر وخرج العاص فوجد الناس قد سال بهم الوادي فقال أين تريدون

قالوا نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ قال لا سبيل اليه فرجع الناس من حيث أتوا

﴿ رجوع مهاجري الحبشة ﴾

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا الى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد وفي الكثرة بعض الأنس وأضف الى ذلك انهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة

وقد أولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد (أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى) تلك الغرانيق (جمع غرنوق وهي الطيور ويراد بها الملائكة) العلى وان شفاعتهنّ لترتجى فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحا وهذا مما لا تجوز روايته إلا على قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته وها نحن أولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر . أما الحديث فسنده ومتنه قلقان فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفاء لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين

حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم فبعد ذكر الأصنام قال (ان هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) فالكلام غير منتظم ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجونه بها وقت الخصام وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة فكيف بهذه وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة الي الكعبة وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سماهم الله سفهاء وأنزل فيهم في سورة البقرة (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) ولكن لم يسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم ان قال مالك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مهج الرجال على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة يقولون أثناء كلامهم ان الهجرة كانت في رجب والرجوع كان في شوال ونزول سورة النجم كان في رمضان فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد والمتأمل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذاك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والإياب منها لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهل السير في البحر ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة فلا غرابة بعد ذلك أن قلنا ان هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ولكن الحمد لله فقد منّ علينا بحفظ

كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مفتر كذاب ففي السورة نفسها (وما ينطق عن الهوى) والذي يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى فكيف يقوله عليه السلام أو يجري على لسانه مما يثبت الشكوك في الوحي الأمر الذي يريده السفهاء ردّ الله كيدهم في نحرهم . والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبي عليه السلام قرأ والنجم فسجد وسجد من كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه على جبهته وقال يكفيني هذا فرأيته قتل بعد كافرًا وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون بل الذي يفيده قوله فرأيته قتل بعد كافرًا انه كان مسلماً ثم رأيته ارتد وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا منهم علي بن أمية بن خلف (هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة الى مكة لم يتمكن من الدخول اليها الا من وجد له مجيرًا فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة وقد رد عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين فلم ير أن يكون مرتاحاً واخوانه يعذبون

﴿ كتابة الصحيفة ﴾

ولما ضاقت الحيل بكفار قريش عرضوا على بني عبد مناف الذين

منهم الرسول عليه السلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ثم عرضوا على أبي طالب أن يعطوه سيدًا من شبانهم يتبناه ويسلم اليهم ابن أخيه فقال عجبًا لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم إبني تقتلونه فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولدي عبد مناف واخراجهم من مكة والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئًا ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدًا للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلمهم وكافرهم ما عدا أبا لهب فانه كان مع قريش وانخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل ابني عبد مناف فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب

﴿ هجرة الحبشة الثانية ﴾

وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضًا على الاغتراب فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عميس والمقداد بن الأسود وعبد الله بن مسعود وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان وتوجه

لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون أبو موسى وبنو عمه ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشي ليسلم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشي الا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قوم لاذوا به أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية

﴿ نقض الصحيفة ﴾

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة وهم هشام بن عمرو بن الحارث العامري وهو أعظمهم في ذلك بلاء وزهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمة الرسول عاتكة والمطعم بن عدي النوفلي وأبو البختري بن هشام الأسدي وزمعة بن الأسود الأسدي واتفقوا على ذلك ليلاً فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة فقال أبو جهل كذبت فقال زمعة لأبي جهل أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت فقال أبو البختري صدق زمعة وقال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير

ذلك وصدق على ما قيل هشام بن عمرو فقام اليها المطعم بن عدي فشقها وكانت الأرضة قد أكلتها فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله وقد أخبر النبي عليه السلام عمهُ أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر فخرج القوم الي مساكنهم بعد هذه الشدة

﴿ وفود نجران ﴾

وقد وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم خبره من مهاجري الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذكر منها في كتبهم وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل ما رأينا ركباً أحمق منكم أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم فقالوا سلام عليكم لا نجاهلكم لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فأنزل الله في ذلك في سورة القصص (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انهُ الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه

بالسحر مرة وبالكذب أخرى وبالجنون طورًا وبالكهانة تارة كل ذلك شأن العاجز المعاند الذي لا يستحيي لمزيد عناده أن يقول (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)

﴿ وفاة خديجة رضي الله عنها ﴾

وبعد خروجه عليه السلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضى الله عنها كان عليه السلام كثيرًا ما يذكرها ويترحم عليها ولا غرابة فهي أول نفس زكية صدقت رسول الله فيما جاء به عن ربه وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا ابراهيم فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة ومنها رقية وأم كلثوم تزوجهما عثمان الأولى بمكة قبل الهجرة وهاجر بها الى الحبشة والثانية بالمدينة بعد أن ماتت أختها ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب وقد جاءت خديجة بأولاد توفوا صغارًا ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلا فاطمة عاشت بعده قليلاً . ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزنًا شديدًا لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه

لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر

﴿ زواج سودة ﴾

وعقد عليه السلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد أن توفى عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها وكرم نسبها في قومها يمنعها من التزوج برجل أقل منها نسباً وشرفاً

﴿ زواج عائشة رضى الله عنها ﴾

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها ولم يتزوج عليه السلام بكرًا غيرها ودخل عليها بالمدينة أما سودة فدخل عليها بمكة

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفى عمه أبو طالب الذي كان يمنعه من أذى أعدائه ومع أنه كان لا يكذب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد

صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته وفيه نزل في سورة القصص (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله نرجو أن يخفف عنه وعدم إسلامه بل هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى فانهم لو بادروا باتباعه لقيل قوم يطلبون سيادةً وفخراً ليسا لهم فجاؤا بهذا الأمر المفترى ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته بل من أعدائها أحياناً كعثمان بن عفان من بني أمية لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها اللهم إلا دعاويهم الكاذبة التي كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم ساحر يفرق بين المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب وقد سمى رسول الله هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه عام الحزن ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة الهاً واحداً فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر فانه تقدم وقال أتقتلون رجلاً أن يقول ربيَ الله

﴿ هجرة الطائف ﴾

فلما رأى عليه السلام استهانة قريش به أراد أن يتوجه الى ثقيف بالطائف (١) يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتم أمر ربه لأنهم أقرب الناس الى مكة وله فيهم خؤولة فان أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف فلما توجه اليهم ومعهُ مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفي فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته فردوا عليه رداً قبيحاً ولم ير منهم خيراً وحينذاك طلب منهم أن لا يشيعوا ذلك عنه كيلا تعلم قريش فيشتد أذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه السلام بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمونهُ بالحجارة حتى أدموا عقبه وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه الى أن انتهى الى شجرة كرم واستظل بها وكانت بجوار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه وكانا في البستان فكره رسول الله مكانهما فدعا الله قائلاً (اللهم اني أشكو اليك ضعف قوتي وهوانِي على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني ان لم يكن

(١) بلد في الجنوب الشرقي من مكه

بك غضب عليّ فلا أبالي) فلما رآه ابنا ربيعة رقا له وأرسلا اليه بقطف من العنب مع مولى لهما نصراني اسمه عدّاس فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال عدّاس هذا الكلام ما يقوله أهل هـذه البلاد فقال له عليه السلام من أيّ البلاد أنت وما دينك فقال نصراني من نينوى (١) فقال له عليه السلام من قرية الرجل الصالح يونس بن متى قال وما علمك بيونس فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس فلما سمع ذلك عدّاس أسلم . وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال ان الله أمرني أن أطيعك في قومك لما صنعوه معك فقال عليـه السلام (اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون) فقال جبريل صدق من سماك الرؤف الرحيم . ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن وهم ممن ينتمون الى موسى صلوات الله عليه فلما سمعوه أنصتوا له ورجعوا الى قومهم منذرين وأبلغوهم خبر رسول الله وفيهم نزل في سورة الأحقاف (وإذ صرفنا اليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصـدقًا لما بين يديه يهدي الى

---

(١) بلد على شاطئ دجلة وهي آخر ما ينتهي اليه العراق وأمامها مدينة الموصل

الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعيَ الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعيَ الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين) وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها (قل أوحيَ اليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولنْ نشركَ بربنا أحدا)

﴿ الاحتماء بالمطعم بن عدي ﴾

ولما رجع عليه السلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه توجه الى الطائف يستنصر بأهليها عليهم فأرسل عليه السلام الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره فأجاب الى ذلك وتسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله الى المطاف فقال له بعض المشركين أمجير أنت أم تابع فقال بل مجير قالوا اذاً لا تخفر ذمتك

﴿ وفد دوس ﴾

وقدم على رسول الله وهو بمكة الطفيل بن عمرو الدوسي من قبيلة دوس عشيرة أبي هريرة الصحابي الشهير وكان الطفيل شريفاً في قومه

شاعرًا نبيلاً فلما قرأ عليه القرآن أسلم فقال له رسول الله اذهب الى قومك فادعهم الى الاسلام ودعا لهم رسول الله فقال اللهم اهد دوساً فتوجه اليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم وستأتي وفادته على الرسول مرة ثانية بقومه في المدينة

﴿ الاسراء والمعراج ﴾

وقبل الهجرة أكرمه الله بالاسراء والمعراج أما الاسراء فهو توجهه ليلاً الى بيت المقدس بايلياء ورجوعه من ليلته وأما المعراج فهو صعوده الى العالم العلوي وقد قال جمهور أهل السنة ان ذلك كان بجسمه الشريف وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه وتقول من قال ان محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله والإسراء مذكور في القرآن الكريم قال تعالى في أول سورة الاسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنة وأصح أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضي عياض في شفائه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي

تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى ابن مريم فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ففتح لنا واذا أنا بيوسف واذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة وذكر مثله فاذا أنا بادريس فرحب بي ودعا لي بخير قال تعالى في سورة مريم (ورفعناه مكاناً عليا) ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فذكر مثله فاذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فذكر مثله فاذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فذكر مثله فاذا أنا بابراهيم مسنداً ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى فاذا أوراقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق

الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله الىّ ما أوحى ففرض عليّ وعلى أمتى خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فسله التخفيف فان أمتك لا يطيقون ذلك فاني قد بلوت بني اسرائيل قبلك وخبرتهم قال فرجعت الى ربي وقلت يا ربي خفف عن أمتى فحط عني خمساً فرجعت الى موسى فقلت حط عني خمساً قال ان أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فسله التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن همّ بحسنة فعملها كتبت له عشرًا ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ومن همّ بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فأخبرته فقال ارجع الى ربك فسله التخفيف فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه . ثم رجع عليه السلام من ليلته فلما أصبح غدا الى نادي قريش فجاء اليه أبو جهل بن هشام فحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له فقال أبو جهل يا بني كعب بن لؤي هلموا فأقبل عليه كفار قريش فأخبرهم الرسول الخبر فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وانكارًا وارتدّ ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب وسعى رجال الى أبي بكر فقال

ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أنصدقه على ذلك قال اني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي من ذلك اليوم صدّيقاً ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله فسألوه نعت بيت المقدس وفيهم رجال رأوه أما رسول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم باباً باباً وموضعاً موضعاً فقالوا أما النعت فقد أصاب فأخبرنا عن عيرنا وكانت لهم عير قادمة من الشام فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يزدهم ذلك الا كفرًا وعنادًا حتى قالوا هذا سحر مبين . وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها فيصلي ركعتين اذا ظهر الفجر وأربع ركعات اذا زالت الشمس ومثلها اذا ضوعف ظل الشيء وثلاثاً اذا غربت وأربعاً اذا غاب الشفق الأحمر وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثلهما مساء كما كان يفعل ابراهيم عليه السلام

﴿ العرض على القبائل ﴾

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجد من قريش منعه

من تأدية الرسالة وتسلط الكبر والعظمة على قلوبهم أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب فكان عليه السلام يخرج في المواسم العربية (وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه فكان بعضهم يرد ردًّا جميلاً وآخرون ردًّا قبيحاً وكان من أقبح القبائل ردًّا بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب وطلب منه بنو عامر ان هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده فقال لهم الأمر لله يضعه حيث يشاء وكان من الذين يحجون البيت عرب يثرب وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان إحداهما من ولد الأوس والثانية من ولد الخزرج وهما أخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين فكانوا دائماً في شقاق ونزاع وكان يجاورهم في المدينة قوم من اليهود وهم بنو قينقاع و بنو قريظة و بنو النضير وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة وكان اليهود اذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يبعث قد قرب زمانه ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشقت عصا الألفة حالفوا اليهود على أنفسهم فحالف الأوس بني قريظة وحالف الخزرج بني النضير و بني قينقاع وآخر الأيام بينهم يوم بعاث قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن أبيّ ابن سلول من الخزرج وأبو عامر الراهب من الأوس

ولذلك كانت عائشة تقول كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج فأرسلوا إياس بن معاذ وأبا الحيسر أنس بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش فلما جاؤا مكة جاءهم رسول الله وقال هل لكم في خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً وقد أرسلني الله الى الناس كافة ثم تلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ يا قوم هـذا والله خير مما جئنا له فخصبه أبو الحيسر وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت

﴿ بدء إسلام الأنصار ﴾

ولما جاء الموسم تعرض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة وكلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث من بني النجار ورافع بن مالك من بني زريق وقطبة بن عامر من بني سلمة وعقبة بن عامر من بني حرام وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدى ودعاهم الى الاسلام والى معاونته في تبليغ رسالة ربه فقال بعضهم لبعض انهُ للنبي الذي كانت تعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فآمنوا به وصدقوه وقالوا انا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزُّ منك ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل وهـذا هو بدء الاسلام لعرب يثرب

﴿ العقبة الأولى ﴾

فلما كان العام المقبل قدم اثنا عشر رجلاً منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا الحارث ورافع ابن مالك وذكوان بن قيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء من الخزرج وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة وهما من الأوس فاجتمعوا به عند العقبة وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض الحرب على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معروف فان وفوا فلهم الجنة وان غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم الى الله عز وجل ان شاء غفر وان شاء عذب وهذه هي العقبة الأولى فأرسل لهم عليه السلام مصعب بن عمير العبدري وعبد الله ابن أم مكتوم وهو ابن خالة خديجة يقرأنهم القرآن ويفقهانهم في الدين ونزل مصعب على أحد المبايعين أبي أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للاسلام وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة إذ قال سعد ابن معاذ رئيس قبيلة الأوس لأسيد بن حضير ابن عم سعد ألا تقوم الى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا لتزجرهما فقام لهما أسيد

بحربته فلما رآه أسعد قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه فلما وقف عليهما قال ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا ان كان لكما بأنفسكما حاجة فقال مصعب أو تجلس فتسمع فان رضيت أمرًا قبلته وان كرهته كففنا عنك ما تكره فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دين الاسلام وهداه الله له فتشهد ورجع الى سعد فسأله عما فعل فقال والله ما رأيت بالرجلين بأسًا فغضب سعد وقام لهما متغيظًا ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله للاسلام ورجع لرجال بني عبد الأشهل وهم بطن من الأوس فقال لهم ما تعدونني فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا قال كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الاشهل إلا أجابه وقد انتشر الإسلام في دور يثرب حتى لم يكن بينهم حديث الا أمر الاسلام

﴿ العقبة الثانية ﴾

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج وبينهم كثير من مشركيهم ولما قابل وفدهم رسول الله واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة فأمرهم أن لا ينبهوا في ذلك الوقت نائمًا ولا ينتظروا غائبًا لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطلعوا على الأمر فيسعوا في نقض ما أبرم شأنهم مع رسول الله

في أول أمره . ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا الى موعدهم كاتمين أمرهم عمن معهم من المشركين وكان ذلك بعد مضى ثلث الليل الأول فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثاً وسبعين رجلاً منهم اثنان وستون من الخزرج وأحد عشر من الأوس ومعهم امرأتان وهما نسيبة بنت كعب من بني النجار وأسماء بنت عمرو من بني سلمة ووافقهم رسول الله هناك وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ليكون متوثقاً له فلما اجتمعوا عرفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحدًا ممن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ثم قال لهم ان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإلا فدعوه بين عشيرته فانهم لبمكان عظيم فقال كبيرهم والمتكلم عنهم البراء بن معرور والله لو كان لنا في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق و بذل مهجنا دون رسول الله وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ لنفسك ولربك ما أحببت فقال أشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم فقال له الهيثم بن التيهان يا رسول الله ان بيننا و بين الرجال عهودًا وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا

ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم عليه السلام وقال بل الدم الدم والهدم الهدم أي ان طالبتم بدم طالبت به وان أهدرتموه أهدرته

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية فبايعه الرجال على ما طلب وأول من بايع أسعد بن زرارة وقيل البراء بن معرور ثم تخير منهم اثنى عشر نقيباً لكل عشيرة منهم واحد تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم أبو الهيثم بن التيهان . وأسعد بن زرارة . وأسيد بن حضير . والبراء بن معرور . ورافع بن مالك . وسعد بن أبي خيثمة . وسعد بن الربيع . وسعد بن عبادة . وعبد الله بن رواحة . وعبد الله ابن عمرو . وعبادة بن الصامت . والمنذر بن عمرو . ثم قال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي . ولأمر ما أراده الله بلغ خبر هذه البيعة مشركي قريش فجاؤا ودخلوا شعب الأنصار وقالوا يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يحصل منهم شيء في ليلتهم وعبد الله بن أبيّ كبير الخزرج يقول ما كان قومي ليفتاتوا عليّ بشيء من ذلك

﴿ هجرة المسلمين الى المدينة ﴾

ولما رجع الأنصار الي المدينة ظهر بينهم الاسلام أكثر من المرة الأولى أما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم فأمر عليه السلام جميع المسلمين بالهجرة الى المدينة فصاروا يتسللون خيفة قريش أن تمنعهم وأول من خرج أبو سلمة المخزومى زوج أم سلمة ومعه زوجه وكان قومها منعوها منه ولكنهم أطلقوها بعد فلحقت به وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبه بلحمهم ودمهم حتى صاروا لا يعبؤن بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم وأبنائهم ما دام في ذلك رضى الله ورسوله ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلي وصهيب وزيد بن حارثة وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم حالهم من الهجرة وقد أراد أبو بكر الهجرة فقال له عليه السلام على رسلك فاني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر استعداداً لذلك

﴿ دار الندوة ﴾

أما قريش فكانوا كأنهم أصيبوا بمس الشيطان حينما طرق

مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذود عنه حتى الموت فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم في دار الندوة وهي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا الا فيها يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه فقال قائل منهم نخرجه من أرضنا كي نستريح منه فرفض هذا الرأي لأنهم قالوا اذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه وقال آخر نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت فرفض هذا الرأي كسابقه لأنهم قالوا ان الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه حيث يفضلونه على الآباء والأبناء فاذا سمعوا ذلك جاؤا لتخليصه وربما جرّ هذا من الحرب علينا مانحن في غنى عنه وقال لهم طاغيتهم بل نقتله ولنمنع بني أبيه من الاخذ بثاره نأخذ من كل قبيلة شاباً جلدًا يجتمعون أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يرضون بالدية فأقروا على هذا الرأي . هذا مكرهم ولكن ارادة الله فوق كل ارادة (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) فأعلم نبيه بما دبره الأعداءُ في سرهم وأمره باللحاق بدار هجرته بدار فيها ينشر الاسلام ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزة والمنعة وهذا من الحكمة بمكان عظيم فانه لو انتشر الاسلام بمكة لقال المبغضون إن قريشًا أرادوا ملك العرب

فعمدوا الى شخص منهم وأوعزوا اليه أن يدعى هـذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ولكنهم كانوا له أعداء ألدّاء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم

﴿ هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴾

فتوجه من ساعته الي صـديقه أبي بكر وأعلمه أن الله قد أذن له في الهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فقال نعم ثم عرض عليه احدى راحلتيه اللتين كانتا معـدتين لذلك فجهزاها أحث الجهاز وصنعت لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر نطاقها وربطت به على فم الجراب واستأجرا عبـد الله بن أرقط من بني الديل بن بكر وكان هادياً ماهرًا وهو على دين كفار قريش فأمناه ودفعا اليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ثم فارق الرسول عليه السلام أبا بكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقروا عليه فاجتمعوا حول باب الدار ورسول الله داخله فلما جاء ميعاد الخروج أمر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه كي لا يقع الشك في وجوده أثناء الليل فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ثم سجى علياً ببردته وخرج على القوم وهو يقرأ (وجعلنا من بين أيديهم سدًّا

ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد ولم يزل عليه السلام سائرًا حتى تقابل مع الصديق وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه . أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم انما باتوا يحرسون عليّ بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله هاجت عواطفهم فأرسلوا الطلب من كل جهة وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد أو يدل عليه وقد وصلوا في طلبهم الى ذلك الغار الذي فيه طلبهم بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه السلام (لا تحزن إن الله معنا) فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يحن لأحد منهم التفاتة الى ذلك الغار بل صار أعدى الأعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب وكان يبيت عندهم عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما فاذا خرج من عندهما عبد الله تبع أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر . ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل بالراحلتين صبح ثلاث وسارا متبعين طريق الساحل . وفي الطريق لحقهم طالبًا سراقة بن مالك المدلجي

وكان قد رأى رسل مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مدلج اذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال يا سراقة اني رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمدًا وأصحابه فعرف سراقة أنهم هم ولكنه أراد أن يثني عزم مخبره عن طلبهم فقال انك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبث في المجلس ساعة وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه فعثرت به فرسه فخر عنها ثم ركبها ثانياً وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت قائما فرس سراقة في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخر عنها ثم زجرها حتى نهضت فلم تكد تخرج يديها حتى سطع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان فعلم سراقة أن عمله ضائع سدًى وداخله رعب عظيم فناداهما بالأمان فوقف عليه السلام ومن معه حتى جاءهم ويقول سراقة وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله فقلت ان قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرهم بما يريد بهم الناس وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً بل قالا له أخف عنا فسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمن فأمر أبا بكر فكتب وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله

وقدومه عليهم يخرجون الى الحرّة (١) حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً بعد أن أطالوا انتظارهم فلما أووا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم (٢) من آطامهم لأمر ينظر اليه فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى فقال اليهودي بأعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم أي حظكم الذي تنتظرون فثاروا الى السلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحرة

﴿ النزول بقباء ﴾

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء والذى حققه المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ وهذا أول تاريخ جديد (٣) لظهور الاسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة وهو مضيق عليه من مشركي قريش ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه

---

(١) هي الأرض ذات الحجارة السود وكانت المدينة محاطة بجملة حرات (٢) تل (٣) لما أراد المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة ولعدم المخالفة بين مبدأ الهجرة وبدء السنة الهلالية قدموا ميعاد الهجرة شهرين وأياماً وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها

أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس

﴿ هجرة الأنبياء ﴾

وبهذه الهجرة تمت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سنة إخوانه من الأنبياء من قبله فما من نبي منهم إلا نبت به بلاد نشأته فهاجر عنها من ابراهيم أبي الأنبياء وخليل الله الى عيسى كلمة الله وروحه كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أهينوا من عشائرهم فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله فسل مصر وتاريخها تنبئك عن اسرائيل (يعقوب) وبنيه أنهم هاجروا اليها حينما رأوا من بنيها ترحيباً بهم وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته . ولما مضت سنون نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم فاضطهدوا بني اسرائيل وآذوهم خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من اعطاء الله حقه في عبادته . وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذبوه فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه (طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد (افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات فانهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم) وسل القرى التي حلت بها

نقمة الله لكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة فلا غرابة أن هاجر عليه السلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراده الله (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

﴿ أعمال مكة ﴾

هـذا ولنبين لك مجمل ما دعا اليه الرسول عليه السلام بمكة من أصول الدين وذلك أمران (الأول) الاعتقاد بوحدانية الله وأن لا يشرك معـه في العبادة غيره سواء كان ذلك الغـير صنماً كما يفعل مشركو مكة أو أباً أو زوجة أو بنتاً كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى ولولا الاعتقاد بوحدانية الله ما كلف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس (الثاني) الاعتقاد بالبعث والنشور وأن هناك يوماً ثانياً للانسان يجازى فيه على ما صنعه في الدنيا ان خيرًا فخير وان شرًّا فشر وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآي المكية فقلما ترى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالاستدلال عليهما وتوبيخ من تركهما وكل ذلك بأساليب تأخذ بالعقل وبراهين لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته مما يضيع الوقت سدًى ونزل

على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من القرآن معظمه وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه وهي البقرة . آل عمران . النساء . المائدة . الأنفال . التوبة . الحج . النور . الأحزاب . القتال . الفتح . الحجرات . الحديد . المجادلة . الحشر . الممتحنة . الصف . الجمعة . المنافقون . التغابن . الطلاق . التحريم . النصر . هذه كلها مدنية وباقي القرآن مكي

ولما نزل عليه السلام بقباء نزل على شيخ بني عمرو كلثوم بن الهدم وكان يجلس للناس ويتحدث لهم في بيت سعد بن خيثمة لأنه كان عزباً ونزل أبو بكر بالسُّنح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج

﴿ مسجد قباء ﴾

وأقام رسول الله بقباء ليالي أسّس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى من أول يوم وصلى فيه عليه السلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين وهم آمنون مطمئنون وكانت المساجد على عهد رسول الله في غاية من البساطة ليس فيها شيء مما اعتاده بناة المساجد في القرون الأخيرة لأن الرسول وأصحابه لم يكن جل همهم الا منصرفاً لتزيين القلوب وتنظيفها من حظ الشيطان فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يتقى بها حر الشمس

﴿ الوصول الى المدينة ﴾

(ثم) تحول عليه السلام الى المدينة والانصار محيطون به متقلدي سيوفهم وهنا حدّث ولا حرج عن سرور أهل المدينة فكان يوم تحوله اليهم يوماً سعيداً لم يروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كل يريد أن يكون نزيله

﴿ أول جمعة ﴾

وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف فنزل وصلاها وهذه أول جمعة له عليه السلام وأول خطبة خطبها عليه السلام حمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقنّ أحدكم ثم ليدعنّ غنمه ليس لها راع ثم ليقولنّ له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولي فبلغك

وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك فلينظرنّ يميناً وشمالاً فلا يري شيئاً ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزي الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

﴿ النزول على أبي أيوب ﴾

ثم ساروا وكلما مروا على دار من دور الأنصار يتضرع اليه أهلها بأن ينزل عندهم و يأخذون بزمام الناقة فيقول دعوها فانها مأمورة ولم تزل سائرة حتى أتت بفناء بني عدي بن النجار وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشم جده فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوب الأنصاري واسمه خالد بن زيد (١) وذلك محل مسجده الشريف فقال عليه السلام ههنا المنزل ان شاء الله (رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) فاحتمل أبو أيوب رحله ووضعه في منزله وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده وخرجت ولائد بني النجار يقلن

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

(١) توفى زمن معاوية في حصار القسطنطينية ودفن هناك خارج المدينة

فقال عليه السلام أتحبينني فقلن نعم فقال الله يعلم أن قلبي يحبكن واختار عليه السلام النزول في الدور الأسفل من دار أبي أيوب ليكون أريح لزائريه ولكن لم يرض رضي الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لما يمكن أن يصيبه من التراب الذي يحدثه وطء الأقدام أو الماء الذي يهراق فقد اتفق أن كسرت من زوجته جرّة ماء بالليل فقام هو وهي بقطيفتهما التي ليس لهما غيرها يمسحان الماء خوفاً على رسول الله ولذلك لم يزل أبو أيوب يستعطفه حتى كان في العلو وكانت تأتيه الجفان كل ليلة من سراة الأنصار كسعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وأم زيد بن ثابت فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد

﴿ نزول المهاجرين ﴾

ولما تحول مع رسول الله أغلب المهاجرين تنافس فيهم الأنصار فحكموا القرعة بينهم فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة

﴿ أخوة الاسلام ﴾

ومن يتأمل الى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر بل بفضل من الله ورحمته يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدَد والعُدد

وكان الأنصار يؤثرون اخوانهم المهاجرين على أنفسهم قال تعالى في سورة الحشر (والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من

هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وهذا أعلى درجات الأخوة وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لاخوانهم فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمكن بينهم الاخاء آخى بين المهاجرين والأنصار فكان كل أنصاري ونزيله أخوين في الله ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضح للقاريء أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية بل نكل ذلك للاحساس الاسلامى فانه أفصح منطقاً من القلم وعلى الإجمال فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة وعسى الله أن يوفق مسلمي عصرنا الى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون وكان هذا الاخاء على المواساة والحق وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الأرحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين (تآخيا في الله أخوين أخوين) ودام هذا الميراث الى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)

﴿ هجرة أهل البيت ﴾

ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله وأرسل معهما عبد الله بن أريقط يدلهما

على الطريق فقدما بفاطمة وأم كلثوم بنتيه عليه السلام وسودة زوجه وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة . أما زينب فمنعها زوجها أبو العاص ابن الربيع وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأم رومان زوج أبيه وعائشة أخته وأسماء زوج الزبير بن العوّام وكانت حاملاً بابنها عبد الله وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة

﴿ حمّى المدينة ﴾

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيرًا منهم الحمى وكان رسول الله يعودهم فلما شكوا اليه الأمر قال اللهمّ حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة وأشد وبارك لنا في مدها وفي صاعها وانقل وباءها الى الجحفة (١) فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون في المدينة بسلام

﴿ منع المستضعفين من الهجرة ﴾

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم منهم اوليد بن اوليد وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص فكان عليه السلام يدعو لهم في صلاته وهذا أصل القنوت وقد حصل

(١) قرية على اثنين وثمانين ميلاً من مكة وهي ميقات أهل الشام

في أوقات مختلفة ومحالّ في الصلاة مختلفة فكان في وتر العشاء وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله فروى كل صحابي ما رآه وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت

﴿ السنة الأولى — بناء المسجد ﴾

ثم شرع عليه السلام في بناء مسجده في مبرك ناقته أمام محلة بني النجار وكان محله مربدًا للتمر يملكه غلامان يتيمان في حجر أسعد ابن زرارة فدعا الغلامين وساومهما المربد ليتخذه مسجدًا فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى عليه السلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما وكان فيه قبور للمشركين و بعض حفر ونخل فأمر بالقبور فنبشت وبالحفر فسويت وبالنخل فقطع ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا في البناء به وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة وسقفوه بالجريد وجعلت عمده من جذوع النخل ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين في العمل وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم ٭ اللهم لا خير إلا خير الآخرة ٭ فارحم الأنصار والمهاجرة ٭ وجعلت قبلة المسجد في شماله الى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثر فيه فأمر عليه السلام بحصبه ولم يزين المسجد بفرش حتى ولا بالحصر و بنى بجانبه حجرتان احداهما

لسودة بنت زمعة والأخرى لعائشة ولم يكن عليه السلام متزوجاً غيرهما اذ ذاك وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج

﴿ بدء الأذان ﴾

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العلي الأعلى فيتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه ولذلك قال في محكم كتابه في سورة العنكبوت (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم ويقووا روابط الألفة والاتحاد بينهم ومتى حان وقت الصلاة فلا بدّ من عمل ينبه الغافل ويذكر الساهي حتى يكون الاجتماع عاماً فأتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك فقال بعضهم نرفع راية اذا حان وقت الصلاة ليراها الناس فلم يرتضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل وقال آخرون نشعل ناراً على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً وأشار آخرون ببوق وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم فكرهه رسول الله لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما وأشار بعضهم بالناقوس وهو ما يستعمله النصارى فكرهه الرسول أيضاً وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس اذا حانت الصلاة

وينادي بها فقبل هذا الرأي وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة قال بلى فقال له قل الله أكبر الله أكبر مرتين وتشهد مرتين ثم قل حيّ على الصلاة مرتين ثم حيّ على الفلاح مرتين ثم كبر ربك مرتين ثم قل لا اله الا الله فلما استيقظ توجه الى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبر رؤياه فقال انها لرؤيا حق ثم قال له لقن ذلك بلالاً فانهُ أندى صوتاً منك وبينما بلال يؤذن اذ جاء عمر يجر رداءه فقال والله لقد رأيت مثله يا رسول الله . وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة والآخر عبد الله ابن أم مكتوم وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح الصلاة خير من النوم مرتين وأقره الرسول على ذلك وكان عليه السلام يأمر في فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ به الغافلون حتى ينتبهوا للسحور والثاني للصلاة ه أما الأذان للجمعة فكان أوّله اذا جلس الامام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء رواه البخاري ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ثم نقل الأذان الذي كان على المنار حين صعود الامام على المنبر في العهد الأول بين يديه

فعلم بذلك أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب بدعة أحدثها

هشام بن عبد الملك ولا معني لهذا الأذان لأنهُ انما هو نداء الى الصلاة ومن هو في المسجد لا معنى لنـدائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء اذا كان النداء في المسجد ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في المدخل

قال الحافظ في فتح الباري . وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء اليها بالذكر والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى اه

فعلم من ذلك كله أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذان الجمعة أنه كان اذا جلس على المنبر أذن مؤذنه على المنار فاذا انتهت الخطبة أقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكلهُ ابتداع

أما الاقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد فقد اختلفت الروايات في نصها فرواها محمد ادريس الشافعي مفردة إلا لفظ قد قامت الصلاة فمثنى ورواها مالك بن أنس مفردة كلها ورواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها

﴿ يهود المدينة ﴾

(هذا) وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظة والنضير فانهم أظهروا العداوة والبغضاء حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق وكانوا قبل مجيء

الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة في ولد اسماعيل فكفروا بما أنزل الله بغياً مع أنهم يرون أن رسول الله محمدًا لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ومما عابوه على الاسلام نسخ الأحكام وما دروا أن القادر العليم يعلم ما يحتاجه الانسان أكثر منهم فانه ميال بطبعه للترقي والرسول عليه السلام وجد باديء بدء بين جماعة من العرب أميين ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج لأنه لو حرم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا الى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الاسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم المختلفة أهواؤهم الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر شيئاً فشيئاً حتى رُوّضت عقولهم وهذبت نفوسهم وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها ليكون التأثير في النفوس أشد ولكن اليهود أرادوا غلّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون وقد حجهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن

الحق فقال في سورة البقرة (قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) ثم حتم جل ذكره عدم إجابتهم بقوله (ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ولم ينقل لنا عن أحد منهم انهُ تمنى ذلك ولو نطقاً باللسان وقد تبين الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع وهو عبد الله بن سلام فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن و بعد أن كان اليهود يعدونهُ من رؤسائهم عدُّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه فبئسما اشتروا لأنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

﴿ المنافقون ﴾

وكان يساعدهم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أبيّ ابن سلول الخزرجي الذي كان مُرَشَّحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شك أن ضرر

المنافقين أشد على المسلمين من ضرر الكفّار لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويُشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مِرارًا والأساسُ الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ولكنه عليه السلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما فكثيرًا ما كان يَتغيب عن المدينة ويولي عليها بعض الأنصار ولكن لم يعهد أنه ولى رجلاً ممن عهد عليه النفاق لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو وُلّوا عملاً فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين وهذا درسٌ مُهِمٌّ لرؤساء الاسلام يعلمهم أنهم لا يثقون في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شُبْهَةُ النفاق أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد

﴿ معاهدة اليهود ﴾

هذا وقد علمت أنه كان يضاد المسلمين في المدينة فئتان اليهود والمنافقون ولكن الرسول قبل من هؤلاء ظواهرهم وعقد مع أولئك عهدًا مقتضاه ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحدًا وان دهمه بالمدينة عدوٌّ ينصرونه وأقرهم على دينهم

﴿ مشروعية القتال ﴾

قد علم مما تقدم أن رسول الله عليه السلام لم يقاتل أحدًا على

الدخول في الدين بل كان الأمر قاصرًا على التبشير والإنذار وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآي ما يقويه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش ومن ذلك قوله في سورة الأحقاف (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) وكان كثيرًا ما يقص الله عليه أنباء اخوانه من المرسلين قبله ليثبت به فؤاده ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجؤوه الى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله فكانوا هم البادئين بالعداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدُّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوانَ إلا على الظالمينَ) وبذلك لم يكن الرسول يتعرض الا لقريش دون سائر العرب فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء أمر الله بقتال المشركين

كافة بقوله في سورة التوبة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث انهم ساعدوا المشركين في حروبهم أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال (وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إنّ اللهَ لا يحبُّ الخائنين) وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادئ الآتية :

(١) اعتبار مشركي قريش محاربين لانهم بدؤا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

(٢) متى رؤي من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل

(٣) متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام

(٤) كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل

حتى يذعن بالاسلام أو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر

(٥) كل من أسلم فقد عصم دمه وماله الا بحقه والاسلام يقطع ما قبله

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيرًا من الآي تحريضًا على الإقدام في قتال الأعداء وتبعيدًا عن الفرار من الزحف فقال في الموضوع الأول في سورة النساء (فليُقاتل في سبيل الله الذين يشرُون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتَلْ أو يغلبْ فسوف نؤتيه أجرًا عظيما) وقال في الموضوع الثاني في سورة الأنفال (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دُبُرَهُ إلاّ مُتحرّفاً لقتال أو مُتحيزًا الى فئة فقد باءَ بغضب من الله ومأواهُ جهنمُ وبئس المصير)

﴿ بدء القتال ﴾

كانت عادة قريش أن تذهب بتجارتها الى الشام لتبيع وتبتاع ويسمى الركب السائر بهذه التجارة عِيرًا وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسراتهم ولا بدّ لوصولهم الى الشام من المرور على دار الهجرة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصادر تجارتهم ذاهبة وآيبة ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة حتى تضعف قوتهم المالية

فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بد أن يكون لان قريشاً لم تكن لتسكت عمن سفه أحلامهم وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين

﴿ سرية (١) ﴾

ففي شهر رمضان أرسل عمه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد حليف حمزة ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العيص (٢) فصادف العير هناك فلما تصافوا للقتال حجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهني فأطاعوه وانصرفوا وشكر عليه السلام مجدياً على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم

وفي شوّال أرسل عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة في ثمانين راكباً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثة ليعترض عيراً لقريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ (٣) فكان بينهم الرمى

---

(١) السرية قطعة من الجيش ونريد بها كل غزاة لم يكن فيها رسول الله والتي كان فيها تسمى غزوة (٢) عرض من أعراض المدينة أي ناحية منها (٣) واد بين الجرمين قرب البحر

بالنبل ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين الى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين

﴿ وفيات ﴾

وفي هذه السنة توفى من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع أسلم قديماً وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ووضع على قبره حجرًا وقال أتعلم به قبر أخي وأدفن اليه من مات من أهلي وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور وتصويرها بصور ترى في عين الناظر كالأصنام ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرًا ما تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله مما يتعلق بأمور الآخرة

ومات من الأنصار أسعد بن زرارة أحد النقباء الاثنى عشر كان رضي الله عنه نقيب بني النجار ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء وهو الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية ومات من

مشركي مكة في هذه السنة الوليد بن المغيرة ولما احتضر جزع فقال له أبو جهل ما جزعك يا عم فقال والله ما بي من جزع من الموت ولكن أخاف أن يظهر دين ابن أبي كبشة بمكة فقال أبو سفيان لا تخف اني ضامن أن لا يظهر وفيها أيضاً مات العاصي بن وائل السهمي وقد كفى الله المسلمين شر هذين الشقيين

﴿ السنة الثانية غزوة وَدّان ﴾

ولاثنتي عشرة ليلة خلت من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة ليعترض عيرًا لقريش فسار حتى بلغ ودان (١) وكان يحمل لواءه عمه حمزة ولم يلق هناك حرباً لأن العير كانت قد سبقته وفي هذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم وان عليهم نصرة المسلمين اذا دعوا ثم رجع الى المدينة بعد مضيّ خمس عشرة ليلة

﴿ غزوة بُواط ﴾

ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عيرًا لقريش آيبة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الابواء ستة أميال

اليها في مائتين من المهاجرين وذلك في ربيع الأول وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص فسار حتى بلغ بواط (١) فوجد العير قد فاتته فرجع ولم يلق كيدًا وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة

﴿ غزوة العُشيرة ﴾

وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعدًا إلا بعث به في تلك العير وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب ومعه بضعة وعشرون رجلاً فخرج لها الرسول في جمادى الأولى ومعه مائة وخمسون من المهاجرين واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائرًا حتى بلغ العشيرة فوجد العير قد مضت. وحالف عليه السلام في هذه الغزوة بني مدلج وحلفائهم ثم رجع عليه السلام الى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع

﴿ غزوة بدر الأولى ﴾

وبعد رجوعه عليه السلام بقليل جاء كرز بن جابر الفهري وأغار

(١) جبال جهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع

على سرح المدينة وهرب فخرج الرسول في طلبه واستخلف على المدينة زيدَ بن حارثة الأنصاري وحمل لواءه علي بن أبي طالب فسار حتى بلغ سفوان (١) وفاته كرز فلم يلق حرباً وتسمى هذه الغزوة بدرا الأولى

﴿ سرية ﴾

وفي رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانية رجال يرأسها عبد الله بن جحش وأعطاه كتاباً مختوماً لا يفضه إلا بعد أن يسير يومين ثم ينظر فيه فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فاذا فيه (اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) وانما لم يخبرهم عليه السلام بمقصدهم وهم بالمدينة حذرًا من شيوع الخبر فيدل عليهم أحد الأعداء من المنافقين أو اليهود فترصد لهم قريش ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة ثم سار عبد الله رضي الله عنه وفي أثناء السير تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان لأنهما أضلا بعيرهما الذى كانا يعتقبانه وسار الباقون حتى وصلوا نخلة فمرت بهم عير قرشية تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ابن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فأجمع المسلمون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويأخذوا ما معهم فحملوا عليهم في آخر يوم

(١) واد من ناحية بدر

من رجب فقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان والحكم وهرب نوفل واستاقوا العير وهي أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم فلما قدموا المدينة وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم وعابتهم قريش واليهود بذلك عنفهم المسلمون وقال لهم عليه السلام ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم فندموا فأنزل الله في سورة البقرة (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) فسري عنهم وقد طلب المشركون فداء أسيريهما فقال عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام الفدية في الأسيرين فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وبقي مع المسلمين وأما عثمان فلحق بمكة كافرا

﴿ تحويل القبلة ﴾

مكث عليه السلام بالمدينة ستة عشر شهرا يستقبل بيت المقدس في صلاته وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه في السماء داعيا الله بذلك فبينما هو في صلاته اذ أوحى الله اليه بتحويل القبلة الى الكعبة فتحول وتحول من وراءه وكانت هذه الحادثة سببا لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم وقد أكثر

اليهود من التنديد على الاسلام بهذا التحويل وما دروا أن لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿ صوم رمضان ﴾

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الاسلامية وكان عليه السلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر والصيام من دعائم هذا الدين والفرائض التي بها يتم النظام فان الانسان مجبول على حب نفسه والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين فلا بد من وازع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن ادراك حاجاتهم ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش اذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه فيسهل عليه بذل الصدقات

﴿ صدقة الفطر ﴾

ولذلك أوجب الشارع الحكيم عقب الصوم زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس ومحبة خالصة

﴿ زكاة المال ﴾

وفي هذا العام فرضت زكاة الأموال وهذه هي النظام الوحيد

الذي به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء فاذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين وحال عليها الحول وجب عليك أن تؤدي ربع عشرها أي اثنين ونصفاً في كل مائة وما زاد فبحسابه واذا بلغت الشياه أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمساً وحال عليها الحول وجب عليك كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدده الشارع ومثلها عروض التجارة ومحصولات الزراعة كل هذا يقبضه الامام ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين في آية الصدقة (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لأول نظرة أن هذا النظام مع عدم اضراره بالأغنياء مقلل لمصائب الفقر التي ألجأت كثيرًا من فقراء الأمم أن يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادئ تقويض العمران وتداعي الأمن كما يفعله الاشتراكيون وغيرهم

﴿ غزوة بدر الكبرى ﴾

لم يطل العهد بتلك العير العظيمة التي خرج لها عليه السلام وهي متوجهة الى الشام فلم يدركها ولم يزل مترقباً رجوعها فلما سمع برجوعها ندب اليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله أن

ينفلكوها فأجاب قوم وثقل آخرون لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يرد حرباً فانه لم يحتفل بها بل قال من كان ظهره حاضرًا فليركب معنا ولم ينتظر من كان ظهره غائبًا فخرج لثلاث ليال خلون من رمضان بعد أن ولى على المدينة عبدَ الله ابن أم مكتوم وكان معه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً مائتان ونيف وأربعون من الأنصار والباقون من المهاجرين ومعهم فرسان وسبعون بعيرًا يعتقبونها والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري * ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم استأجر راكبًا ليأتي قريشًا ويخبرهم الخبر فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم وخافوا على تجارتهم فنفروا سراعًا ولم يتخلف من أشرافهم الا أبو لهب ابن عبد المطلب فانه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة وأراد أمية ابن خلف أن يتخلف لحديث حدثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمرًا بعد الهجرة بقليل حيث قال كما رواه البخاري سمعت من رسول الله يقول انهم قاتلوك قال بمكة قال لا أدري ففزع لذلك وحلف أن لا يخرج فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل ولكن ارادة الله فوق كل ارادة فان منيته ساقته الى حتفه رغم أنفه وكذلك عزم جماعة من الأشراف على القعود فعيب عليهم ذلك وبهذا أجمعت رجال قريش على الخروج فخرجوا على الصعب والذلول أمامهم القينات يغنين بهجاء المسلمين (وزين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب

لكم اليوم من الناس واني جار لكم) وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم فقال في سورة الحشر (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين) وهكذا كان عمله في هذه الواقعة (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون اني أخاف الله والله شديد العقاب) وكان عدة من خرج من المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرس وسبعمائة بعير (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون ولم يكن خروجه إلا للعير فعسكر ببيوت السقيا خارج المدينة واستعرض الجيش فرد من ليس له قدرة على الحرب ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير ولما بلغ الروحاء (١) جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً أو بعد غد فجمع عليه السلام كبراء الجيش وقال لهم (أيها الناس ان الله قد وعدني احدى الطائفتين انها لكم العير أو النفير) فتبين له عليه السلام أن بعضهم يريدون غير ذات الشوكة وهي العير ليستعينوا بما فيها من الأموال فقد قالوا هلاّ ذكرت لنا القتال فنستعد وجاء مصداق ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال (واذ يعدكم

---

(١) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلاً جنوب المدينة الغربي

الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) ثم قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون والله لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فدعا له بخير ثم قال عليه السلام أشيروا عليّ أيها الناس وهو يريد الأنصار لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تجب عليهم نصرته الا ما دام بين أظهرهم فان فيها يا رسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل الى دارنا فاذا وصلت اليها فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فقال سعد بن معاذ سيد الأوس كأنك تريدنا يا رسول الله فقال أجل فقال سعد قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر على بركة الله فأشرق وجهه عليه السلام وسرّ بذلك وقال كما في رواية البخاري (أبشروا والله لكأني أنظر الى مصارع القوم) فعلم القوم من هذه الجملة أن الحرب لا بد حاصلة وحقيقة حصلت فان أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له ترك الطريق المسلوكة وسار متيعاً ساحل البحر فنجا

وأرسل الى قريش يعلمهم بذلك ويشير عليهم بالرجوع فقال أبو جهل لا نرجع حتى نحضر بدراً (١) فنقيم فيه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً فقال الأخنس ابن شريق الثقفي لبني زهرة وكان حليفاً لهم ارجعوا يا قوم فقد نجى الله أموالكم فرجعوا ولم يشهد بدراً زهري ولا عدوي ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بدر فنزلوا عدوته القصوى (٢) عن المدينة في أرض سهلة لينة أما جيش المسلمين فانه لما قارب بدراً أرسل عليه السلام علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام ليعرفا الأخبار فصادفا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص السهميين فأتيا بهما والرسول عليه السلام قائم يصلي ثم سألاهما عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان فقال الغلامان نحن لأبي سفيان فتركاهما ولما أتم الرسول عليه السلام صلاته قال اذا صدقاكم ضربتموهما واذا كذباكم تركتموهما صدقا والله انهما لقريش ثم قال لهما أخبراني عن قريش قالا هم وراء هذا الكثيب فقال

---

(١) محل بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها على الطريق السلطاني وكان به سوق يعقد كل سنة ثمانية أيام

(٢) عدوة الوادي شاطئه

لهما كم هم فقالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال القوم ما بين التسعمائة والألف ثم سألهما عمن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً فقال عليه السلام لأصحابه هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها (١) ثم ساروا حتى نزلوا بعدوة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة فأصبح المسلمون عطاشاً بعضهم جنب وبعضهم محدث فحدثهم الشيطان بوسوسته ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم فانه قال لهم ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤا

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادي واغتسلوا وتوضؤا وملؤا الأسقية ولبدت الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين فانه وحل الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال ومصداق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء كما أراهموه

---

(١) قطع كبدها

وقت اللقاء قليلي العدة كيلا يفشل المسلمون وليقضيَ الله أمرًا كان مفعولا قال تعالى في سورة الأنفال (إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكنَّ الله سلم انه عليم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً والى الله ترجع الأمور) ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر فقال له الحباب بن المنذر الأنصاري وكان مشهوراً بجودة الرأي يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فاني أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغوّر ما عداه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون فقال الرسول عليه السلام لقد أشرت بالرأي فنهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغوّرت ليقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان أعزَّنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام

يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ولا أطوع لك منهم لهم رغبة في الجهاد ونية ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك انما ظنوا أنها العير يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك فقال عليه السلام أو يقضي الله خيراً من ذلك ثم بنى للرسول عريش فوق تل مشرف على ميدان الحرب ولما اجتمعوا عدّل عليه السلام صفوفهم مناكبهم متلاصقة فصاروا كأنهم بنيان مرصوص ثم نظر لقريش فقال (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُّك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به) وفي هذا الوقت وقع خلف بين رؤساء عسكر المشركين فان عتبة بن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش ويحمل ما أصيب من عيره ودعا الناس الى ذلك فلما بلغ أبا جهل الخبر وسمه بالجبن وقال والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وقبل أن تقوم الحرب على ساقها خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي وقال أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتنّ دونه فخرج اليه حمزة بن عبد المطلب وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه فوقع على ظهره فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه ليبرّ قسمه فأتبعه حمزة فقتله ثم وقف عليه السلام يحرض الناس على الثبات والصبر وكان فيما قال (وان الصبر في مواطن البأس مما يفرج

الله به الهمّ وينجي به من الغمّ) ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج من صفوف المشركين ثلاثة نفر عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد فطلبوا أكفاءهم فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار فقالوا لا حاجة لنا بكم انما نريد أكفاءنا من بني عمنا فأخرج لهم عليه السلام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب للأول وحمزة بن عبد المطلب للثاني وعلي بن أبي طالب للثالث فأما حمزة وعلي فقتلا صاحبيهما وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه فحمل رفيقا عبيدة على عتبة فأجهزا عليه وحمل عبيدة من بين الصفوف جريحاً يسيل مخ ساقه وأنجعوه الى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة فوضع خده عليها وبشره عليه السلام بالشهادة فقال وددت والله أن أبا طالب كان حياً ليعلم أننا أحق منه بقوله

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه السلام بين الصفوف يعدلها بقضيب في يده فمر بسواد بن غزية حليف بني النجار وهو خارج من الصف فضربه بالقضيب في بطنه وقال استقم يا سواد فقال أوجعتني يا رسول الله وقد بعثت بالحق والعدل فأقدني من نفسك فكشف الرسول عليه السلام عن بطنه وقال استقد يا سواد فاعتنقه سواد وقبل بطنه فقال عليه السلام ما حملك على ذلك فقال يا رسول الله قد حضر

ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد أن يمس جلدي جلدك فدعا له بخير ثم ابتدأ عليه السلام يوصي الجيش فقال (لا تحملوا حتى آمركم وان اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم) ثم حضهم على الصبر والثبات ثم رجع الى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه وكان من دعاء الرسول عليه السلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخاري (اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان شئت لم تعبد) فقال أبو بكر حسبك فان الله سينجز لك وعدك فخرج عليه السلام من العريش وهو يقول (سَيُهزَمُ الجمعُ ويولونَ الدُّبُر) ثم قال عليه السلام يحرض الجيش (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسباً مقبلاً غير مدبر الا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلاً فله سلبه) فقال عمير ابن الحمام وبيده تمرات يأكلها بخٍ بخٍ ما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل واشتدّ القتال وحمى الوطيس وأيد الله المسلمين بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم فلم تكن إلا ساعة حتى هزمَ الجمعُ وولوا الدُّبر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل من المشركين نحو السبعين منهم من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة قتلوا مبارزة أوّل القتال وأبو البختري بن هشام والجرّاح والد أبي عبيدة قتله ابنهُ

بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر وقتل أمية بن خلف وابنه علي اشترك في قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمار بن ياسر وقد سعيا في ذلك لما كان يفعله بهما أمية في مكة ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل بن هشام أثخنه فتيان صغيران من الأنصار لما كانا يسمعانه من أنهُ كان شديد الايذاء لرسول الله وأجهز عليه عبد الله بن مسعود وقتل نوفل بن خويلد قتله علي بن أبي طالب وقتل عبيدة والعاصي ولدا أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية وقتل كثيرون غيرهم أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً قتل منهم عليه السلام وهو راجع عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين وكانت هذه الواقعة في ١٧ رمضان وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن وبين انتاريخين ١٤ سنة كاملة

وقد أمر عليه السلام بالقتلى فنقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه السلام أخبر بها قبل حصول الموقعة الى قليب بدر لأنهُ عليه السلام كان من سننه في مغازيه اذا مرَّ بجيفة انسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً أو كافرًا ولما ألقى عتبة والد أبي حذيفة أحد السابقين الى الاسلام تغير وجه ابنه فقطن الرسول عليه السلام لذلك فقال لعلك دخلك من شأن أبيك شيء فقال لا والله ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً فكنت أرجو أن يهديه الله للاسلام فلما

رأيت ما مات عليه حزنني ذلك فدعا له الرسول عليه السلام بخير ثم أمر عليه السلام براحلته فشد عليها حتى قام على شفة القليب الذي رمى فيه المشركون فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فانا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فقال عمر يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها فقال والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم وتقول عائشة رضي الله عنها انما قال انهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ثم قرأت انك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور تقول يعلمون ذلك حينما تبوّؤا مقاعدهم من النار (رواه البخاري) ثم أرسل عليه السلام المبشرين فأرسل عبد الله ابن رواحة لأهل العالية (١) وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين عادة الأعداء في اذاعة الضراء يقصدون بذلك فتنة المسلمين فجاء أولئك المبشرون بما سرّ أهل المدينة وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان ثم قفل رسول الله راجعاً وهنا وقع خلف بين بعض المسلمين

(١) قرى بظاهر المدينة وهي العوالي

في قسمة الغنائم فالشبان يقولون باشرنا القتال فهى لنا خالصة والشيوخ يقولون كنا ردءا لكم فنشاركم ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو الى الضعف ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين الى تشتت الشمل أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال (يسئلونكَ عنِ الأنفال قل الأنفالُ لله والرسول فاتقوا اللهَ وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) فسطع على أفئدتهم نور القرآن فتألفت بعد أن كادت تفترق وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء كما حكم القرآن فقسمها عليه السلام على السواء الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس وأدخل في الأسهام بعض من لم يحضر لأمر كلف به وهم أبو لبابة الأنصاري لأنه كان مخلفاً على أهل المدينة والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه السلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقق أمرًا بلغه والحارث بن الصمة وخوّات بن جبير لأنهما كسرا بالروحاء فلم يتمكنا من الصبر وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لأنهما أرسلا يتجسسان الأخبار فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب وعثمان بن عفان لأن الرسول عليه السلام خلفه على ابنته رقية يمرضها وعاصم بن عدي لأنه خلفه على أهل قباء والعالية وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة عشر منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الذي جرح في المبارزة الأولى فانه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر

ودفن بالصفراء ولما قارب عليه السلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن

طلع البـدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

(أسرى بدر)

ولما دخلوا المدينة استشار عليه السلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكنني من فلان لقريب له فأضرب عنقه وتمكن حمزة من أخيه العباس وعلياً من أخيه عقيل وهكذا حتى يعلم أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة وقال أبو بكر يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً فقال عليه السلام ان الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال (فمن اتبعني فانه مني ومن

عصاني فانك غفورٌ رحيم) وان مثلك يا عمر مثل نوح قال (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) ورأى عليه السلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي اعزاز الدين وخذلان المشركين ثم قال لأصحابه أنتم اليوم عالة فلا يفلتنّ أحد من أسراكم إلا بفداء وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم أن لا يفعلوا كيلا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا على أن لا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثارهم وتواصوا فيما بينهم أن لا يعجلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه

﴿ الفداء ﴾

فلم يلتفت الى ذلك المطلب بن أبي وداعة السهمي وكان أبوه من الأسرى فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها وكان أربعة آلاف الى ألف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداءه (ومن) الأسرى عمرو بن أبي سفيان ولما طلب من أبيه فداؤه أبى وقال والله لا يجمع محمد بين ابني ومالي دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم فبينما أبو سفيان بمكة إذ

وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمرًا فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو فمضى قوم سعد الى رسول الله وأخبروه الخبر فأعطاهم عمراً ففكوا به سعداً (ومن) الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول وكان عليه السلام قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته فانه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبي العاص أن يطلق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول فامتنع وقال والله لا أفارق صاحبتي وما أحب أن لي بها امرأة من قريش ولما أسر أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ليلة عرسها فلما رأى عليه السلام تلك القلادة رقّ لها رقة شديدة وقال لأصحابه ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضى الأصحاب بذلك فأطلقه عليه السلام بشرط أن يترك زينب تهاجر الى المدينة فلما وصل الى مكة أمرها باللحاق بأبيها وكان الرسول أرسل لها من يأتي بها فاحتملوها (هذا) ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح ردّ عليه امرأته بالنكاح الأول (ومن) الأسرى سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه فقال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل يدلع (١) لسانه فلا يقوم

(١) يخرج

عليك خطيباً في موطن أبداً فقال عليه السلام (لا أمثل فيمثل الله بي وان كنت نبياً وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه) وقدم بفدائه مكرز بن حفص ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء .

هذا وقد حقق الله خبر الرسول في سهيل فانهُ لما مات عليه السلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرهم من الأعراب فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله أيها الناس من كان يعبد محمدًا فان محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت ألم تعلموا أن الله قال (انك ميتٌ وانهم ميتون) وقال (وما محمدٌ الاَّ رَسولٌ قدْ خلتْ من قبلهِ الرُّسلُ أفائن مات أوْ قتل انقلبتم على أعقابكم) ثم قال والله اني أعلم أن هذا الدين سيمتدُّ امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم فانهُ ليعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنهُ قد ختم على صدره حسد بني هاشم وتوكلوا على ربكم فان دين الله قائم وكلمتهُ تامة وان الله ناصر من نصره ومقوّ دينه وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وان ذلك لم يزد الاسلام الا قوّة فمن رأيناه ارتدَّ ضربنا عنقه فتراجع الناس عما كانوا عزموا عليه وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم (ومن) الأسرى الوليد بن الوليد افتكه أخواه خالد وهشام فلما افتدى ورجع الى مكة أسلم فقيل له هلا أسلمت قبل الفداء فقال خفت

أن يعدوا إسلامي خوفاً ولما أراد الهجرة منعهُ أخواه ففرَّ الى النبي في عمرة القضاء (ومن) الأسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية في تلك الحرب فدى نفسه وهو الجد الخامس للامام محمد بن ادريس الشافعي (ومنهم) وهب بن عمير الجمحي كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الايذاء لرسول الله جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مصاب بدر فقال عمير والله لولا دين عليَّ ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الفقر بعدي كنت آتي محمدًا فأقتله فان ابني أسير في أيديهم فقال له صفوان دينك عليّ وعيالك مع عيالي فأخذ عمير سيفه وشحذه وسمه وانطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر الى عمير متوشحاً سيفه فقال هذا الكلب عدوّ الله ما جاء الا بشرّ ثم قال للنبي عليه السلام هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه فقال أدخله عليّ فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخله فلما رآه عليه السلام قال أطلقه يا عمر ادنُ يا عمير فدنا وقال انعموا صباحاً فقال عليه السلام قد أبدلنا الله تحية خيرًا من تحيتك وهي السلام ثم قال ما جاء بك يا عمير قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه قال فما بال السيف قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً فقال عليه السلام أصدقني ما الذي جئت له قال ما جئت إلا لذلك قال عليه السلام كلا بل قعدت أنت وصفوان في الحجر وقلتما

كيت وكيت فأسلم عمير وقال كنا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره الا أنا وصفوان فقال عليه السلام فقهوا أخاكم في دينه وأقرؤه القرآن وأطلقوا أسيره فعاد عمير الى مكة وأظهر اسلامه (ومن) الأسرى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب ابن عمير مرّ به أخوه فقال للذي أسره شد يدك به فان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك فقال له يا أخي هذه وصايتك بي ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم (ومن) الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد خرج لهذه الحرب مكرهاً ولما وقع في الأسر طلب منه فداء نفسه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب فقال علام ندفع وقد استكرهنا على الخروج فقال عليه السلام لقد كنت في الظاهر علينا فأخذت منه فدية نفسه وابن أخيه ثم قال للرسول لقد تركتني فقير قريش ما بقيت قال كيف وقد تركت لأم الفضل أموالاً وقلت لها ان مت فقد تركتك غنية فقال العباس والله ما اطلع على ذلك أحد . وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة فانه عليه السلام لم يعف عمه مع علمه بأنه انما خرج مكرهاً وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) (ومن) الأسرى أبو عزة الجمحي الشاعر كان شديد الايذاء لرسول الله

بمكة فلما أسر قال يا محمد اني فقير وذو عيال وذو حاجة قد عرفتها فامنن عليّ فمنّ عليه فضلاً منه

﴿ العتاب في الفداء ﴾

ولما تم الفداء أنزل الله في شأنه (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الاثخان في قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الانتشار وعاب بعض المسلمين على ارادة عرض الدنيا وهو الفدية ولولا حكم سابق من الله أن لا يعاقب مجتهدًا على اجتهاده ما دام المقصد خيرًا لكان العذاب ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبينا عليه السلام فيما جاء به لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناء على رأي كثير من الصحابة وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيرًا بأن يؤتيهم خيرًا مما أخذ منهم ويغفر لهم فقال (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) وهذه الغزوة هي التي أعز الله بها الاسلام وقوّى أهله ودمغ

فيه الشرك وخرب محله مع قلة المسلمين وكثرة عدوهم فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالاسلام وأهله مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد والعدة الكاملة والخيل المسومة والحيلاء الزائدة ولذلك قال الله ممتناً على عباده بهذا النصر (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر انما هو من عند الله فهي أعظم غزوات الاسلام إذ بها كان ظهوره و بعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألداء للاسلام ودخل الرعب في قلوب العرب الآخرين فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال فلا جرم ان شكرنا العلي الأعلى على هذه العناية واتخذنا يوم النصر في بدر وهو السابع عشر من رمضان عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين

﴿ غزوة قينقاع ﴾

هذا واذا كان للشخص عدوان فانتصر على أحدهما حرك ذلك شجو الآخر وهاج فؤاده فتبدو بغضاؤه غير مكترث بعاقبة عدائه وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر فانهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه وأظهروا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصار وهذا مما يدعو المسلمين

للتحرز منهم وعدم اتمانهم في المستقبل اذا شبت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم فأنزل الله في سورة الأنفال (وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ (١) اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد فقالوا يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمنّ أنا نحن الناس وكانوا أشجع يهود فأنزل الله في سورة آل عمران (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبث بالحلف عبد الله بن أبيّ وقال اني رجل أخشى الدوائر فأنزل الله تعليماً للمسلمين في سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتيَ بالفتح أو أمر من

(١) أي فاطرح لهم العهد على طريق مستو قصد بأن تظهر لهم نبذ العهود ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد لأن ذلك خيانة ولذا قال (ان الله لا يحب الخائنين)

عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) وعند ما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام في نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه حمزة وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري فحاصرهم خمس عشرة ليلة

﴿ جلاء قينقاع ﴾

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال فقبل ذلك عليه السلام ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال فذهبوا الى أذرعات (١) ولم يحل عليهم الحول حتى هلكوا كلهم وخمس عليه السلام أموالهم وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل ولما سئل عن ذلك قال انما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والاسلام هكذا وشبك بين أصابعه

﴿ غزوة السويق ﴾

كان أبو سفيان متهيجاً لأنه لم يشاهد بدراً التي قتل فيها ابنه

(١) بلد بالشام

وذوو قرباه فخلف أن لا يمس رأسه الماء حتى يغزو محمدًا وليبرّ بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين فأتى سيدهم حيّ بن أخطب فلم يرض مقابلته فأتى سلام بن مشكم فأذن له واجتمع به ثم خرج من عنده وأرسل رجالاً من قريش الى المدينة فحرقوا بعض نخلها ووجدوا أنصاريًا فقتلوه ولما علم بذلك رسول الله خرج أثرهم في مائتين من أصحابه لخمس خلون من ذي الحجة بعد أن ولى على المدينة بشير بن عبد المنذر ولكن لم يلحقهم لأنهم هربوا وجعلوا يخففون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الاسراع فألقوا ما معهم من جرب السويق فأخذه المسلمون ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق

﴿ صلاة العيد ﴾

وفي هذا العام سنّ الله للعالم الاسلامى سنة عظيمة بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الاخاء ويقووا عروة الدين الوثقى وهي الاجتماع في يومى عيد الفطر وعيد الأضحى وكان عليه السلام يجمع المسلمين في صعيد واحد ويصلى بهم ركعتين تضرعًا الى الله أن لا يفصم عروتهم وأن ينصرهم على عدوهم ثم يخطبهم حاضًا لهم على الائتلاف ومذكرًا لهم ما يجب عليهم لأنفسهم ثم يصافح المسلمون

بعضهم بعضاً وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين حتى يكون السرور عاماً لجميع المسلمين فبعد الفطر زكاته وبعد الأضحى تضحيته نسأله تعالى أن يؤلف قلوبنا ويوفقنا لأعمال سلفنا

﴿ زواج علي بفاطمة عليهما السلام ﴾

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب وعمره احدي وعشرون سنة بفاطمة بنت رسول الله وسنها خمس عشرة سنة وكان منها عقب رسول الله بنو الحسن والحسين وزينب (وفيها) دخل عليه السلام بعائشة بنت أبي بكر وسنها إذ ذاك تسع سنوات

﴿ السنة الثالثة ﴾

يا لله يقضي على الشقي بالشقاوة حتى لا يسمع ولا يبصر فيتخذ الغدر رداءً والخيانة شعاراً فلا ينجح معه إلا اراحة العالم من شره هذا كعب بن الأشرف اليهودي عظيم بني النضير أعمته عداوة المسلمين حتى خلع برقع الحياء وصار يحرض قريشاً على حرب رسول الله ويهجوه بالشعر ويجتهد في اثارة الشحناء بين المسلمين فكلما جبر عليه السلام كسراً هاضه هذا الشقي بما ينفثه من سموم لسانه

﴿ قتل كعب بن الاشرف ﴾

ولما انتصر المسلمون ببدر ورأى الأسرى مقرنين في الحبال خرج الى قريش يبكي قتلاهم ويحرضهم على حرب المسلمين فقال عليه السلام مَن لكعب بن الأشرف فانه قد آذى الله ورسوله فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي أنحب أن أقتله قال نعم قال أنا لك به وأذن لي أن أقول شيئاً أتمكن به فأذن له ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له ان هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة وانه قد عنانا واني قد أتيتك أستسلفك قال وأيضاً والله لتملّنه قال انا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر الى أي شيء يصير شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين قال نعم ولكن ارهنوني قالوا أي شيء تريد قال ارهنوني نساءكم قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنوني أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن نرهنك اللأمة يعني السلاح فرضي فواعده ليلاً أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة أخو كعب من الرضاع وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر وكلهم أوسيون فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزل فقالت له امرأته أين تخرج الساعة وانك امرؤ تحارب فقال انما هو ابن أخي محمد بن مسلمة

ورضيعي أبو نائلة ان الكريم لو دعي الى طعنة بليل لأجاب ثم قال محمد لمن معه اذا جاءني فاني آخذ بشعره فأشمه فاذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه فنزل اليهم كعب متوشحاً سيفه وهو ينفح منه ريح المسك فقال محمد ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب أتأذن لي أن أشم رأسك قال نعم فشمه فلما استمكن منه قال دونكم فاقتلوه ففعلوا وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم ثم أتوا النبي فأخبروه وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام وكان عليه السلام اذا رأى من رئيس غدرًا ومقاصد سوء ومحبة لاثارة الحرب أرسل له من يريحه من شره وقد فعل كذلك مع أبي عفك اليهودي وكان مثل كعب في الشر

﴿ غزوة غطفان ﴾

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دعثور يريدون الغارة على المدينة فأراد عليه السلام أن يغل أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء فخرج اليهم من المدينة في أربعمائة وخمسين رجلاً لثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول وخلف على المدينة عثمان بن عفان ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا الى رؤوس الجبال ولم يزل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أمر

فعسكروا به وحدث أنه عليه السلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون فأبصره دعثور فأقبل اليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال من يمنعك مني يا محمد فقال الله فأدركت الرجل هيبة ورعب أسقطا السيف من يده فتناوله عليه السلام وقال لدعثور من يمنعك مني قال لا أحد فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للاسلام وحول الله قلبه من عداوة رسول الله وجمع الناس لحربه الى محبته وجمع الناس له ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا ما ينتجه حسن المعاملة والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)

﴿ غزوة بحران ﴾

بلغه عليه السلام أن جمعاً من بني سليم يريدون الغارة على المدينة فسار اليهم في ثلاثمائة من أصحابه لست خلون من جمادى الأولى وخلف على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل الى بحران (١) تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع

(١) موضع بناحية الفرع وهذا موضع من أضخم أعراض المدينة

﴿ سرية ﴾

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أغلق في وجه تجارتهم ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم أرسلوا عيرًا الى الشام من طريق العراق وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى فجاءت أخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد بن حارثة في مائة راكب يترقبونهم وكان ذلك في جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العير على ماء اسمه (القردة) بناحية نجد فأخذت العير وما فيها وهرب الرجال وقد خمس الرسول عليه السلام هذه حينما وصلت له

﴿ غزوة أُحُد ﴾

لما أصاب قريشًا ما أصابها ببدر وأغلقت في وجوههم طرق التجارة اجتمع من بقي من أشرافهم الى أبي سفيان رئيس تلك العير التي جلبت عليهم المصائب وكانت موقوفة بدار الندوة ولم تكن سلمت لأصحابها بعد فقالوا ان محمدًا قد وترنا وقتل خيارنا وانا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعدادًا لحرب محمد وأصحابه وقد رضي بذلك كل من له فيها نصيب وكان ربحها نحوًا من خمسين ألف دينار فجمعوا

لذلك الرجال فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الاحابيش وهم حلفاؤهم من بني المصطلق و بني الهون بن خزيمة ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الشاعر الذي لا ينسى القاريء أن الرسول منّ عليه ببدر وأطلقه من غير فداء انك رجل شاعر فأعنا بلسانك فقال اني عاهدت محمدًا أن لا أعين عليه وأخاف ان وقعت في يده مرة ثانيـة أن لا أنجو فلم يزل به صفوان حتى أطاعه وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين ودعا جبير بن مطعم غلاماً حبشياً له اسمه وحشي وكان رامياً قلما يخطيء فقال له اخرج مع الناس فان أنت قتلت حمزة بعمي طعيمة فأنت حر ثم خرج الجيش ومعهم القيان والدفوف والمعازف والخمور واصطحب الأشراف منهم نساءهم كيلا ينهزموا ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينـة بذي الحليفة . أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به اليه عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر وقال ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فان هم أقاموا أقاموا بشر مقام وان هم دخلوا علينا

قاتلناهم فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والانصار ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أبيّ أما الأحداث وخصوصاً من لم يشهد بدراً منهم فأشاروا عليه بالخروج وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم لأنهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم (لكم النصر ما صبرتم) ثم دخل حجرته ولبس عدته فظاهر بين درعين (١) وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره ولما رأى ذوو الرأى من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم وقالوا ردوا الأمر لرسول الله فما أمر ائتمرنا فلما خرج عليه السلام قالوا يا رسول الله نتبع رأيك فقال ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن الحضير وخرج من المدينة بألف رجل فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه السلام كتيبة كبيرة فسأل عنها فقيل هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبيّ من اليهود فقال انا لا نستعين بكافر على مشرك وأمر بردهم لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطولى في الخيانة ثم

(١) أي لبس درعاً فوق درع وهما ذات الفضول وفضة التي أصابها من بني قينقاع

استعرض الجيش فرد من استصغر وكان فيمن رد رافع بن خديج وسمرة ابن جندب ثم أجاز رافعاً لما قيل له انه رام فبكى سمرة وقال لزوج أمه أجاز رسول الله رافعاً وردني مع أني أصرعه فبلغ رسول الله الخبر فأمرهما بالمصارعة فكان الغالب سمرة فأجازه ثم بات عليه السلام محله ليلة السبت واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس وفي السحر سار الجيش حتى اذا كان بالشوط وهو بستان بين أحد والمدينة رجع عبد الله بن أبيّ بثلاثمائة من أصحابه وقال عصاني وأطاع الولدان فعلام نقتل أنفسنا فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر وقال يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم قالوا (لو نعلم قتالاً لاتبعناكم) فقال لهم أبعدكم الله فسيغني الله عنكم نبيه . ولما فعل ذلك عبد الله بن أبيّ همت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس فعصمهما الله وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين فقوم يقولون نقاتلهم وقوم يقولون نتركهم فأنزل الله في سورة النساء (فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أحد (١) وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قبل أحد

(١) جبل شمالي المدينة الشرقي

وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خالد وجعل آخرين أمام الباقين واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً برأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال لا تبرحوا ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا ثم عدل عليه السلام الصفوف وخطب المسلمين وكان فيما قال (ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وان أبطأ عنها فاتقوا ربكم وأجملوا في طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى له سائر جسده) ثم ابتدأ القتال بالمبارزة فخرج رجل من صفوف المشركين فبرز له الزبير فقتله ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة فقتله علي فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة بن أبي طلحة وكلهم يقتلون وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر يطلب البراز فأراد أبوه أن يبرز له فقال له عليه السلام متعنا بنفسك يا أبا بكر ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون ولما التقت الصفوف وحميت

الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف الرجال وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول (اللهم بك أجول وبك أصول وفيك أقاتل حسبي الله ونعم الوكيل) وفي هذه المعمعة قتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله سيد الشهداء غافله وحشي وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطئ ثنايا بطنه

(هذا) ولما قتل حملة اللواء من المشركين ولم يقدر أحد على الدنو منه ولوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل قالوا ما لنا في الوقوف من حاجة ونسوا أمر السيد الحكيم صلى الله عليه وسلم فذكرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون أما رئيسهم فثبت معه قليل منهم فلما رأى خالد بن الوليد أحد رؤساء المشركين خلو الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش فقتل من ثبت من الرماة وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً ورفعت احدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مصعب ابن عمير صاحب اللواء وأشاع أن محمداً قد قتل فدخل الفشل في المسلمين حتى قال بعضهم علام نقاتل اذا كان محمد قد قتل فارجعوا الى قومكم

يؤمنوكم وقال جماعة اذا كان محمد قد قتل فقاتلوا عن دينكم وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعة من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة وخارجة بن زيد ورفاعة بن المعلي وعثمان بن عفان وتوجهوا الى المدينة ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة منهم أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بجحفته وكان رامياً شديد الرمي فنثر كنانته بين يدي رسول الله وصار يقول وجهي لوجهك فداء وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه السلام انثرها لأبي طلحة وكان ينظر الى القوم ايرى ماذا يفعلون فيقول له أبو طلحة يا نبيّ الله بأبي أنت وأمي لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك (وممن) ثبت سعد بن أبي وقاص فكان عليه السلام يقول له ارم سعد فداك أبي وأمي (ومنهم) سهل ابن حنيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس (ومنهم) أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري تترس على رسول الله فصار النبل يقع في ظهره وهو منحن حتى كثر فيه (وكان) يقاتل عن الرسول زيادة بن الحارث حتى أصابت الجراح مقاتله فأمر به فأدنى منه ووسده قدمه حتى مات (وقد) أصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات فقد أقبل أبيّ بن خلف يريد قتله فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه وقال خلوا طريقه فلما قرب

منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع ولم يقتل رسول الله غيره لا في هـذه الغزوة ولا في غيرها (وكان) أبو عامر الراهب قد حفر حفرًا وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول في حفرة منها فأغمى عليه وخدشت ركبتاه فأخذ عليّ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله وهما ممن ثبت حتى استوى قائمًا فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله وشجّ وجهه عليه السلام عبـد الله بن شهاب الزهري وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت في ذلك ثنيتاه وقال حينئذ عليـه السلام كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم فأنزل الله في سورة آل عمران (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون) وكان أول من عرف رسول الله بعـد هذه الدهشة كعب بن مالك الأنصاري فنادى يا معشر المسلمين ابشروا فأشار اليه الرسول أن اصمت ثم سار بين سـعد بن أبي وقاص وسـعد بن عبادة يريد الشعب ومعه جمع منهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله بن المغيرة يقول أين محمد لا نجوت ان نجا فعثر به فرسه ووقع في حفرة فمشى اليه الحارث بن الصمة وقتله ولما وصل الشعب جاءت فاطمة فغسلت عنه الدم وكان علىّ يسكب الماء ثم أخذت

قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم ثم أراد عليه السلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده فنظر الى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال لا ينبغي لهم أن يعلونا اللهم لا قوة لنا الا بك ثم أرسل اليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم (وقد) أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول فوجد بطلحة نيف وسبعون جراحة وشلت يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم ستة من المهاجرين والباقون من الأنصار (ومن) المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر وعمرو بن الجموح وابنه خلاد بن عمرو وأخو زوجه والد جابر بن عبد الله فأتت زوج عمرو هند بنت حرام وحملتهم زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة فنهى عليه السلام عن الدفن خارج أحد فرجعوا (وقتل) سعد بن الربيع وأرسل عليه السلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق فقيل له ان رسول الله يسأل عنك فقال لمبلغه قل لقومي يقول لكم سعد بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة فوالله ما لكم عندي عذر (وقتل) أنس بن النضر عم أنس بن مالك فانه لما سمع بقتل رسول الله

قال يا قوم ما تصنعون بالبقاء بعده موتوا على ما مات عليه اخوانكم فلم يزل يقاتل حتى قتل رضى الله عنه ومثلت قريش بقتلى أحد حتى أن هندًا زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة وأخذت كبده لتأكلها فلاكتها ثم أرسلتها وفعلوا قريبًا من ذلك باخوانه الشهداء (ثم) ان أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته نَعَمْ فَعال ان الحرب سجال يوم بيوم بدر وموعدكم بدر العام المقبل ثم قال انكم ستجدون في قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني . ثم ان المشركين رجعوا الى مكة ولم يعرجوا على المدينة وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا في ذلك اليوم والا لم يكن بد من تعقب المشركين لهم حتى يغيروا على مدينتهم . ثم تفقد عليه السلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزنًا شديدًا ودفن الشهداء كلهم بأحد كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب فكان يشق عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة (ولما) رجع المسلمون الى المدينة سخر بهم اليهود والمنافقون وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء وقالوا لاخوانهم (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا)

وهذا الذي ابتلي به المسلمون درس مهم لهم يذكرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأصيبوا (أولهما) طاعة الرسول في أمره فقد قال للرماة لا تبرحوا من مكانكم ان نحن نصرنا أو قهرنا فعصوا أمره

ونزلوا (الثانى) أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيرًا ما تكون سببًا في مصائب عظيمة وهؤلاء أرادوا عرض الدنيا والتهوا بالغنائم حتى عوقبوا وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التى فصلت غزوة أحد (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) فسبب هذا الابتلاء التنازع فينبغي الاتفاق . والفشل فينبغي الثبات . والعصيان فينبغي طاعة الرئيس نسأل الله التوفيق

﴿ غزوة حمراء الأسد ﴾

لما رجع عليه السلام الى المدينة أصبح حذرًا من رجوع المشركين الى المدينة ليتمموا انتصارهم فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس فاستجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح فضمدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يحل فأعطاه علي بن أبي طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد (١) وقد كان ما ظنه الرسول حقًا فان المشركين

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة في طريق مكة

تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر فأصروا على الرجوع ولكن لما بلغهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس وألقى الله الرعب في قلوبهم فمادوا في سيرهم الى مكة وظفر عليه السلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر الذي منّ عليه ببدر بعد أن تعهد أن لا يكون على المسلمين فأمر بقتله فقال يا محمد أقلني وامنن عليّ ودعني لبناتي وأعطيك عهدًا أن لا أعود لمثل ما فعلت فقال عليه السلام لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمدًا مرتين (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) اضرب عنقه يا زيد فضرب عنقه وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف فان الرجل الذي لا يحترز مما أصيب منه ليس بعاقل فلا بد من الحزم لاقامة دعائم الملك

﴿ حوادث ﴾

وفي هذه السنة زوج عليه السلام بنته أم كلثوم لعثمان بن عفان بعد أن ماتت رقية عنده ولذلك كان يسمى ذا النورين (وفيها) تزوج عليه السلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وأمها أخت عثمان بن مظعون وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي رضى الله عنه فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر (وفيها) تزوج عليه السلام زينب بنت خزيمة

الهلالية من بني هلال بن عامر كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها واحسانها اليهم وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها بأحد وهى أخت ميمونة بنت الحارث لأمها (وفيها) ولد الحسن بن علىّ رضى الله عنهما (وفيها) حرمت الخمر وكان تحريمها بالتدريج لما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها فيصعب اذا تحريمها دفعة واحدة وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تنفر عنها لأن المنكر اذا أسند تحريمه لحادثة أقرّ الجميع على تقبيحها كان ذلك أشد تأثيرًا في النفس فأول ما بين فيها قوله تعالى في سورة البقرة (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ومنفعة الخمر تقوية الجسم ولما شربها بعض المسلمين وخلط في القراءة حرمت الصلاة على السكران فقال تعالى في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على اخوانهم حرمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب (١) والأزلام (٢) رجس من عمل الشيطان

(١) هي حجارة تصب عليها دماء الذبح وتعبد (٢) هي القداح التى كانوا يستقسمون بها وفي قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام نهاية التنفير ولذلك قال عليه السلام شارب الخمر كعابد الوثن

فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد أجاب المسلمون على ذلك بقولهم انتهينا فليجب المسلمون الآن

﴿ السنة الرابعة ﴾

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه السلام فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وعقد له لواء وقال له سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فأغر عليهم وأرسل معه رجالاً فسار في هلال المحرم حتى بلغ قطناً (١) فأغار عليهم فهربوا عن منازلهم ووجد أبو سلمة إبلاً وشاءً فأخذها ولم يلق حرباً ورجع بعد عشرة أيام من خروجه (وفي) بدئها أيضاً بلغه عليه السلام أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي المقيم بعُرَنة (٢) يجمع الجموع لحربه فأرسل له عبد الله بن أنيس الجهني وحده ليقتله فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتقول حتى يتمكن فأذن له وقال انتسب لخزاعة فخرج لخمس خلون من المحرم ولما وصل اليه قال له سفيان ممن الرجل قال من خزاعة سمعت بجمعك لمحمد

(١) جبل لبني أسد بناحية فيد شرقي المدينة

(٢) موضع قريب من عرفات

فجئت لأكون معك فقال له أجل اني لفي الجمع له فمشى عبد الله معه وحدثه وسفيان يستحلي حديثه فلما انتهى الى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام فقام وقتله ثم ارتحل حتى أتى المدينة ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال

﴿ سرية ﴾

وفي صفر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش مع رهط عضل والقارة الذين جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون من يفقههم في الدين وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى اذا كانوا بالرجيع (١) غدر بهم أولئك الرهط ودلوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قتله عبد الله بن أنيس فنفروا اليهم فيما يقرب من مائتي رام واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم فلما أحس بهم رجال السرية لجؤا الى جبل هناك فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد أن لا نقتلكم فنزل اليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم وقاتلهم الباقون ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك ولما رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر امتنع أحدهم فقتلوه وأما الاثنان فباعوهما بمكة ممن كان له ثار عند المسلمين وهناك قتلا

(١) ماء لبني هذيل بين مكة وعسفان

وقد قال أحدهما وهو خبيب بن عدي حين أرادوا قتله

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

﴿ سرية ﴾

في صفر وفد على رسول الله أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو من رؤس بني عامر فدعاه عليه السلام الى الاسلام فلم يسلم ولم يبعد بل قال اني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ولو بعثت معي رجالاً من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال عليه السلام اني أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو عامر أنا لهم جار فأرسل معه المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه كانوا يسمون القراء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن فساروا حتى نزلوا بئر معونة (١) فبعثوا حرام بن ملحان بكتاب الى عامر بن الطفيل سيد بني عامر فلما وصل اليه لم يلتفت الى الكتاب بل عدا على حرام فقتله ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم وهم رعل وذكوان وعصية

(١) شرق المدينة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم

فأجابوه وذهبوا معه حتى اذا التقوا بالقراء أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعاً لقلة عددهم وكثرة عدوهم ولم ينج الا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم وعمرو بن أمية كان في سرح القوم وأبلغ عليه السلام خبر القراء فخطب في أصحابه وكان فيما قال (ان اخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم وانهم قالوا ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضينا عنه ورضى عنا) وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة

﴿ غزوة بني النضير ﴾

يا لله ما أسوأ عاقبة الطيش فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر ولكن بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض من أصحابه في ديار بني النضير اذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو فاطلع عليه السلام على

قصدهم فرجع وتبعه أصحابه ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم اخرجوا من بلادى فقد هممتم بما هممتم من الغدر (إذ الحزم كل الحزم أن لا يتهاون الانسان مع من عرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم اخوانهم المنافقون يقولون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم (لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون) ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء فأمر عليه السلام بالتهيؤ لقتالهم فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وأعطى رايته علياً أما بنو النضير فتحصنوا في حصونهم وظنوا أنها مانعتهم من الله فحاصرهم عليه السلام ست ليال ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى الى تسليمهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن أبيّ مساعدة بل خذلهم كما خذل بني قينقاع من قبلهم فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم وأن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا آلة الحرب ففعل وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ومنهم أكابرهم حيّ بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق ومنهم من سار الى أذرعات بالشام وأسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب ولم

بخمس رسول الله ما أخذ من بني النضير فانه في، لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ومثل هـذا يكون لمعـدات الحرب وللرسول يطعم منه أهله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كما قال تعالى في سورة الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهـل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) فأعطى عليه السلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم وردوا لاخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم وأخذ عليـه السلام أرضاً يزرعها ويدخر منها قوت أهله عاماً

﴿ غزوة ذات الرقاع ﴾

وفي ربيع الآخر بلغه عليه السلام أن قبائل من نجد يتهيئون لحربه وهم بنو محارب وبنو ثعلبة فتجهز لهم وخرج في سبعمائة مقاتل وولى على المدينة عثمان بن عفان ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهن فبلغ الخبر رجالهم فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال ثم اجتمع جمع منهم وجاؤا للحرب فتقارب الناس وأخاف بعضهم بعضاً ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه السلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلون صلى بالمسلمين صـلاة الخوف فألقى الله الرعب في قلوب

الأعداء وتفرقت جموعهم خائفين منهُ صلى الله عليه وسلم

ومال الامام البخاري الى أن هذه الغزوة كانت فى السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه

﴿ غزوة بدر الآخرة ﴾

لما أهلَّ شعبان هذا العام كان موعد أبي سفيان فانه بعد انقضاء غزوة أحد قال للمسلمين موعدنا بدر العام المقبل فأجابه الرسول الى ذلك وكان بدر محل سوق تعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم التجار فيه ثمانيا فلما حل الأجل وقريش مجدبون لم يتمكن أبو سفيان من الايفاء بوعده فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يوسم بخلف الوعد فاستأجر نعيم بن مسعود الأشجعي ليأتي المدينة ويرجف بما جمعهُ أبو سفيان من الجموع العظيمة فقدم نعيم المدينة وقال للمسلمين (انَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يلتفت عليه السلام لهذا الارجاف اتكالاً على ربه بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله ابن أبي ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدرًا فلم يجدوا بها أحدًا لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نية الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظانًا أن إرجاف نعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون فسار حتى

أتى مجنة وهي سوق معروفة من ناحية مرّ الظهران فقال لقومه ان هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام عشب فارجعوا أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم في تجارته أحد (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبي سفيان قد والله نهيتك أن تعد القوم وقد اجترؤا علينا ورأوا أنا أخلفناهم

﴿ حوادث ﴾

وفي هذا العام ولد الحسين بن علي (وفيه) توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين (وفيه) توفى أبو سلمة رضى الله عنه ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة وأول من هاجر الى الحبشة (وفيه) تزوج عليه السلام أم سلمة هندًا زوج أبي سلمة بعد وفاته

﴿ السنة الخامسة غزوة دومة الجندل ﴾

في ربيع الأول من هذا العام بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن جمعًا من الأعراب بدومة الجندل (١) يظلمون من مرّ بهم وأنهم يريدون الدنوّ من المدينة فتجهز لغزوهم وخرج في ألف من أصحابه بعد أن ولى

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين طيبة خمس عشرة ليلة

على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم فلما بلغهم الخبر تفرقوا فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم فأصيب من أصيب وهرب من هرب ثم نزل بساحتهم فلم يلق أحدًا وبث السرايا فلم تجد منهم أحدًا فرجع عليه السلام غانمًا وصالح وهو عائد عيينة بن حصن الفزاري وهو الذي كان يسميه عليه السلام الأحمق المطاع لأنه كان يتبعه ألف قناة وأقطعه عليه السلام أرضًا يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة لأن أرضه كانت قد أجدبت

﴿ غزوة بني المصطلق ﴾

في شعبان بلغه عليه السلام أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشًا على حرب المسلمين في أحد يجمع الجموع لحربه فخرج له عليه السلام في جمع كثير وولى على المدينة زيد بن حارثة وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا وفي أثناء مسيره عليه السلام التقى بعين بني المصطلق فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله . ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفًا شديدًا حتى تفرق عنه

بعضهم ولما وصل المسلمون الى المريسيع (١) تصاف الفريقان للقتال بعد أن عرض عليهم الاسلام فلم يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية واستاقوا الابل والشياه وكانت الابل ألفي بعير والشياه خمسة آلاف استعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران وعلى الأسرى بريدة وكان في نساء المشركين برّة بنت الحارث سيد القوم وقد أخذ من قومها مئتا بيت أسرى وزعت على المسلمين وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم فان بني المصطلق من أعز العرب دارًا فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جدًّا فأراد عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية فقال المسلمون أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا فمنوا عليهم بالعتق فكانت جويرية أيمن امرأة على قومها كما قالت عائشة رضى الله عنها وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم (وقد) حصل في هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعادتا بالتفريق على المسلمين (فأولاهما) أن أجيرًا لعمر بن الخطاب

(١) ماء لخزاعة على يوم من الفرع

اختصم مع حليف للخزرج فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الأجير بالمهاجرين فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال ما بال دعوى الجاهلية (وهي ما يقال في الاستغاثة يا لفلان) فأخبر الخبر فقال دعوا هذه الكلمة فانها منتنة ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه و بذلك سكنت الفتنة فلما بلغ عبد الله بن أبيّ هذا الخصام غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال ما رأيت كاليوم مذلة أو قد فعلوها نافرونا في ديارنا والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك أما والله (لئن رجعنا الى المدينة ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ) ثم التفت الى من معه وقال هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحوّلوا الى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده وكان في مجلسه شاب حديث السنّ قويّ الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت فقال والله يا رسول الله لقد سمعته قال لعله أخطأ سمعك فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أبيّ أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك وقال كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه

ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتدّ الحرّ يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم في هذا الموضوع فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت فقال أو مابلغك ماقال صاحبكم زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل قل أنت والله يارسول الله تخرجه ان شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم سار عليه السلام بالناس سيرًا حثيثًا حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبي في أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوّى رأسه واستكبر وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بن أبيّ واخوانه وصدقت زيد بن أرقم ولما بلغ ذلك عبد الله ابن عبد الله بن أبيّ استأذن رسول الله في قتل أبيه حذرًا من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد فأمره عليه السلام بالاحسان الى أبيه

﴿ حديث الافك ﴾

(الناذرة الثانية) وهي أفظع من الأولى وأجلب منها للمصائب وهي رمى عائشة الصديقية زوج رسول الله بالافك فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمي وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه السلام ليلة

بالرحيل وكانت السيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه لأن النساء كنّ إذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم فلم يستنكر القوم خفة الهودج وكانت عائشة جارية حديثة السنّ فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها وليس بالمنزل داع ولا مجيب فغلبتها عيناها فنامت وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان والذي تولى كبر الافك عبد الله ابن أبيّ ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهرًا والناس يفيضون في قول أهل الافك وهي لا تشعر بشيء وكانت تعرف في رسول الله رقة اذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله كيف حالكم مما جعلها في ريب عظيم فلما نقهت خرجت هي وأم مسطح بن أثاثة أحد أهل الافك للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقالت عائشة بئس

ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدرًا فقالت يا هنتاه أولم تسمعي ما قالوا فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض في بيت أبيها فأذن لها فسألت أمها عما يقول الناس فقالت يا بنية هوّني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها فقالت عائشة سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وفي خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة أهلك أهلك ولا نعلم عليهم الا خيرًا وقال علي ابن أبي طالب لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة وقال لها هل رأيت من شيء يريبك فقالت والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصه غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتي الداجن فتأكله فقام عليه السلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي الا خيرًا ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الا خيرًا وما يدخل على أهلي الا معي فقال سعد بن معاذ أنا يا رسول الله أعذرك منه فان كان من الأوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا

أمرك فقام سعد بن عبادة الخزرجي وقال كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أنه يقتل فقام أسيد بن حضير وقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وبينما هي مع أبويها اذ دخل النبي عليه السلام فسلم ثم جلس فقال أما بعد يا عائشة انه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها أجيبا رسول الله فقالا والله ما ندري ما نقول فقالت اني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً الا أبا يوسف قال (فصبرٌ جميلٌ واللهُ المستعانُ على ما تصفون) ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقية (ان الذين جاؤا بالافكِ عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الاثم

والذي تولى كبرهُ منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم . في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم . يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) فسرى عن رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها أمها قومى فاشكري رسول الله فقالت لا والله لا أشكر الا الله الذي برأني وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرّح بالافك ثمانين جلدة وهي حد القاذف وكانوا ثلاثة حمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وكان أبو بكر ينفق على مسطح بن

أثاثة لقرابته منه فلما تكلم بالافك قطع عنه النفقة فأنزل الله (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر بل نحب ذلك يا رسول الله وأعاد النفقة على مسطح فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقدًا يتربصون الفتن فمتى رأوا بابًا لها ولجوه فنعوذ بالله منهم

﴿ غزوة الخندق ﴾

لم يقر لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها بل كان في نفوسهم دائمًا أن يأخذوا ثارهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم الى مكة وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ومنوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه ثم جاؤا الى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم ارتياحًا فتجهزت قريش وأتباعها برأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري وعددهم أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف بعير وتجهزت غطفان برأسهم عيينة ابن حصن الذي جازى إحسان رسول الله كفرًا فانه كما قدمنا أقطعه أرضًا يرعى فيها سوائمه حتى اذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش

لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس وتجهزت بنو مرة برأسهم الحارث بن عوف المري وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع برأسهم أبو مسعود بن رخيلة وتجهزت بنو سليم برأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة وتجهزت بنو أسد برأسهم طليحة بن خويلد الأسدي وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان ولما بلغهُ عليه السلام أخبار هاته التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فأمر عليه السلام المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمالي المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية وهذه هي الجهة التي كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدوّ من الحرب جهتها وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل وعمل معهم عليه الصلاة والسلام فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام ان لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وان أرادوا فتنة أبينا

وأقام الجيش في الجهة الشرقية مسندًا ظهره الى سلع وهو جبل مطل

على المدينة وعدتهم ثلاثة آلاف وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة أما قريش فنزلت بمجمع الأسيال وأما غطفان فنزلت جهة أحد وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التي لم تكن العرب تعرفها فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق منهم عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن ودّ وآخرون وقد برز علي بن أبي طالب لعمرو بن ودّ فقتله وهرب اخوانه وهوى في الخندق نوفل بن عبد الله فاندقت عنقه (ورُمي) سعد بن معاذ رضى الله عنهُ بسهم قطع أكحله وهو شريان الذراع واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد وجعل عليه السلام على الخندق حراساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل وكان يحرس بنفسه ثلة فيه مع شدة البرد وكان عليه السلام يبشر أصحابه بالنصر والظفر ويعدهم الخير أما المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنهُ ضمائرهم حتى قالوا (ما وعدنا اللهُ ورسولهُ الاّ غرورا) وانسحبوا قائلين أن بيوتنا عورة نخاف أن يغير عليها العدوّ (وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا) واشتدت الحال بالمسلمين فان هذا الحصار صاحبه ضيق على فقراء المدينة والذي زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يساكنونهم في المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود وسبب

ذلك أن حيّ بن أخطب سيد بني النضير المجلين توجه الى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وكان له كالشيطان إذ قال للانسان اكفر فحسن له نقض العهد ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله أرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري وأرسل الزبير بن العوّام يستجلي له الخبر فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر وناوا من رسول الله والمسلمين أمامه فرجع وأخبر الرسول بذلك وهنالك اشتدّ وجل المسلمين وزلزلوا زلزالاً شديداً لأن العدوّ جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون وتكلم المنافقون بما بدا لهم فأراد عليه السلام أن يرسل لعيينة بن حصن ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان فأبى الأنصار ذلك قائلين انهم لم يكونوا ينالون منا قليلاً من ثمرنا ونحن كفار أفبعد الاسلام يشاركوننا فيها . واذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون فانظر الى هذه العناية من الله بالمتمسكين بدينه القويم . جاء نعيم بن مسعود الأشجعي وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان فقال يا رسول الله اني قد أسلمت وقومي لا يعلمون باسلامي فمرني بأمرك حتى أساعدك فقال أنت رجل واحد وما ذا عسى أن تفعل ولكن خذل عنا ما استطعت فان الحرب خدعة

﴿ الخدعة في الحرب ﴾

فخرج من عنده وتوجه الى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم فقال يا بني قريظة تعرفون ودّي لكم وخوفي عليكم واني محدثكم حديثاً فاكتموه عني قالوا نعم فقال لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير من اجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم وان قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة انتهزوها والا انصرفوا لبلادهم وأما أنتم فتسا كنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى أن لا تدخلوا في هـذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا الى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم فاستحسنوا رأيه وأجابوه الى ذلك ثم قام من عندهم وتوجه الى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال أنتم تعرفون ودّي لكم ومحبتي إياكم واني محدثكم حديثاً فاكتموه عني قالوا نفعل فقال لهم ان بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه فقالوا له أيرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك ورد جناحنا الذي كسرت (يريد بني النضير) فرضي بذلك منهم وها هم مرسلون اليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظة يدعوهم

للقتال غـدًا فأجابوا انا لا يمكننا أن نقاتل في السبت (وكان ارساله لهم ليلة سبت) ولم يصبنا ما أصابنا الا من التعدي فيه ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا الى بلادكم فتحققت قريش وغطفان كلام نعيم بن مسعود وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً وكان عليه السلام قد ابتهل الى الله الذي لا ملجأ الا اليه ودعاه بقوله (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم) وقد أجاب الله دعاءه عليه السلام فأرسل على الأعداء ريحاً باردة في ليلة مظلمة فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليلة المدلهمة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح . ولما سمع عليه السلام الضوضاء في جيش العدو قال لأصحابه لا بد من حادث فمن منكم ينظر لنا خبر القوم فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً وكان فيهم حذيفة بن اليمان فقال عليه السلام تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب فقال يا رسول الله البرد شديد فقال اذهب في حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم فخاطر رضي الله عنه بنفسه في خدمة نبيه حتى اطلع على جلية الخبر وان الأعداء عازمون على الرحلة

﴿ هزيمة الأحزاب ﴾

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك يده حذرًا من أن يدخل بينكم عدو وقد

حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل فقال له صفوان بن أمية انك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضى فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي تحزب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منة منه وفضلاً لساءت الحال . وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة وكان حقاً على الله أن يسميه نعمة بقوله في سورة الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا . وإذ قالت طائفه منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا)

﴿ غزوة بني قريظة ﴾

ولما رجع عليه السلام بأصحابه وأراد أن يخلع لباس الحرب أمره الله باللحوق ببني قريظة حتى يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود

ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة فقال لأصحابه لا يصلين أحد منكم العصر الا في بني قريظة فساروا مسرعين وتبعهم عليه السلام راكباً على حماره ولواؤه بيد علي بن أبي طالب وخليفته على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق فصلاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ولم يصلها الآخرون الا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يعنف فريقاً منهم ((ولما)) رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم وأرادوا التنصل من فعلتهم القبيحة وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ولكن أنى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة فلما رأوا أن لا مناص من الحرب وانهم ان استمروا على ذلك ماتوا جوعاً طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير سلاح فلم يرض أيضاً بل قال لا بد من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيرًا كان أو شرًّا فقالوا له ارسل لنا أبا لبابة نستشيره وكان أوسياً من حلفاء قريظة له بينهم أولاد وأموال فلما توجه اليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول فقال لهم انزلوا

وأومأ بيده الى حلقه يريد ان الحكم الذبح . ويقول أبو لبابة لم أبارح موقفي حتى علمت أني خنت الله ورسوله فنزل من عندهم قاصداً المدينه خجلاً من مقابلة رسول الله وربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره . ولما سأل عنه عليه السلام أخبر بما فعل فقال أما انه لو جاءني لاستغفرت له أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه . ثم ان بني قريظة لما لم يروا بدًّا من النزول على حكم رسول الله فعلوا فأمر برجالهم فكتفوا فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء اخوانهم الخزرج فقال لهم ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم فقالوا نعم واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذى كان جريحًا من السهم الذي أصيب به في الخندق وكان مقيما بخيمة في المسجد معدة لمعالجة الجرحى فأرسل عليه السلام من يأتي به فحملوه على حماره والتف عليه جماعة من الأوس يقولون له أحسن في مواليك ألا ترى ما فعل ابن أبيّ في مواليه فقال رضى الله عنه لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس قال عليه السلام قوموا الى سيدكم فأنزلوه ففعلوا وقالوا له ان رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم وقال له الرسول احكم فيهم يا سعد فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت فقالوا نعم فالتفت الى الجهة التي فيها الرسول وقال

وعلى من هنا كذلك وهو غاضّ طرفه إجلالاً فقالوا نعم قال فاني أحكم أن تقتل الرجال وتسبى النساء والذرية فقال عليه السلام (لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد) لأن هذا جزاء الخائن الغادر ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم وجمعت غنائمهم فكانت ألفاً وخمسمائة سيف وثلثمائة درع وألفي رمح وخمسمائة ترس وجحفة ووجد أثاثاً كثيرًا وآنية وأجمالاً نواضح وشياهاً فخمس ذلك كله مع النخل والسبى للراجل ثلث الفارس وأعطى النساء اللاتي كنّ يمرضن الجرحى ووجد في الغنيمة جرار خمر فأريقت . وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضي الله عنه وأرضاه كان في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندق وكان عليه السلام يحبه كثيرًا و بشره بالجنة على عظيم أعماله (وعقب) رجوع المسلمين الى المدينة تاب الله على أبي لبابة بقوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) وقد عاهد الله أن يهجر ديار قريظة التي حصلت له فيها هذه الزلة و بتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ولم تبق الا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب في اثارة الأحزاب وسيأتي للقارئ قريباً اليوم الذى يعاقبون فيه

﴿ زواج زينب بنت جحش ﴾

وفي هذا العام تزوج عليه السلام زينب بنت جحش وأمها أميمة عمته بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانها في الشرف العظيم فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي ويعتقدون أن لا كفء من سواهم لبناتهم وزيد وان كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف فلما نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا) لم يروا بدًّا من القبول فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها الى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك . ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب له في زواجه بزوج ابنه فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى في نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بابطال هذه القاعدة

وهي تحريم زوج المتبني بقوله في سورة الأحزاب (فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولا) ثم ان الله حرم التبني على المسلمين لما فيه من الاضرار وأنزل فيه في سورة الأحزاب (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد ابن محمد) وأبدل بذلك أن ذكر اسمه في قرآن يتلى على مر الدهور والأعوام . يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز الا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة مايقول فانهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت في قلبه فقال سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك الخ وهذا مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وأسلمت قديماً ورسول الله بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على اسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة ورسول الله هو الذي زوجها زيدًا فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك . ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه انه

مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله في سورة الحجر المكية (لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم) وفي سورة طه المكية أيضاً (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر الى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها ان هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً وأبعدهم عن الدنايا وأشدهم ذكاء وفراسة حتى مدحه الله بقوله في سورة ن (وانك لعلى خلق عظيم) لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق وضعها أعداء الدين ليصلوا بها الى أغراضهم والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل فلم تبق شبهة في أن الحقيقة ما نقلناه لك أولاً وهو الذي يستفاد من القرآن الشريف قال تعالى في سورة الأحزاب (واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيدٌ منها وطرًا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهنّ وطرًا وكان أمر الله مفعولا) والذي أبداه الله هو زواجه بها ولم يبد غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد

﴿ الحجاب ﴾

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبه ويذكره كثيرًا ويود أن ينزل فيه قرآن وكان يقول لو أُطاع فيكن ما رأتكن عين فنزل في سورة الأحزاب (وإذا سألتموهن متاعًا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) فقال بعضهم أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمدٌ لأتزوجن عائشة فنزل بعد الآية المتقدمة (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا ان ذلكم كان عند الله عظيما) أما غير أزواجه عليه السلام من المؤمنات فأمرن بغض الأبصار وحفظ الفروج كما أمر بذلك الرجال وأمرن أن لا يبدين زينتهن للأجانب الا ما ظهر منها كالخاتم في الأصبع والخضاب في اليد والكحل في العين . أما ما خفى منها فلا يحل ابداؤه كالسوار للذراع والدملج للعضد والخلخال للرجل والقلادة للعنق والاكليل للرأس والوشاح للصدر والقرط للاذن والمراد بالزينة الظاهرة والخفية مواضعها . وأمرن أيضًا بأن يضربن بخمرهن على الجيوب كيلا تبقى صدورهن مكشوفة فان النساء اذ ذاك كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكن يدلن الخمر

من ورائهنّ . ونهين عن أن يضربن بأرجلهن ليعلم أنهن ذوات خلخال وإذا كان النهي عن اظهار صوت الحلى بعد ما نهين عن اظهار الحلى علم بذلك أن النهي عن اظهار مواضع الحلى أبلغ وأبلغ قال تعالى في سورة النور (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (وكان) النساء في أول الاسلام كنّ في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للاماء اذا خرجن بالليل الى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان وربما تعرضوا للحرة بعلة الامة يقولون حسبناها أمة فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زيّ الاماء بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليغطي الوجه والأعطاف ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع قال تعالى في سورة الاحزاب (يا أيها النبيُّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورًا رحيما)

(أما) حجب المرأة عمن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يفعل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا في عهد السلف الصالح فان الشارع الحكيم سن ذلك ليكون الرجل على علم مما يقدم عليه حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين في أمر أجمع عليه أئمة الدين قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء (وقد ندب الشرع الى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال اذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينهما أي يؤلف بينهما من وقوع الأدمة على الأدمة وهي الجلدة الباطنة والبشرة الجلدة الظاهرة وانما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف وقال عليه السلام (ان في أعين الأنصار شيئاً فاذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر اليهن) قيل كان في أعينهن عمش وقيل صغر وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم الا بعد النظر احترازاً من الغرور وقال الأعمش كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والابتعاد عن التربية الدينية التي تسوق الى مكارم الأخلاق قد حسنا عند عامة المسلمين في العصور الأولى حجب المرأة مطلقاً حسماً للمفاسد ودرءاً للفتنة

﴿ فرض الحج ﴾

(وفي هذا العام) على ما عليه الأكثرون فرض الله على الأمة

الاسلامية حج البيت من استطاع اليه سبيلا ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار فيتجهوا الى الله ويتهلوا اليه أن يؤيدهم بنصره ويعينهم على اتباع دينه القويم وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى

﴿ السنة السادسة ﴾

(سرية)

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة أرسل عليه السلام محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بني بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضرية (١) فسار اليهم يكمن النهار ويسير الليل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة وهرب باقيهم فاستاقت السرية النعم والشياه وعادوا راجعين الى المدينة وقد التقوا وهم عائدون بثمامة بن أثال الحنفي من عظماء بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه فلما أتوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق فانه أطلق اساره بعد ثلاث أبي فيها الانقياد للاسلام بعد أن عرض عليه ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد فرجع الى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله (يا محمد والله

(١) موضع على سبع ليال من المدينة في طريق البصرة

ما كان على الأرض من وجه أبغض اليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها اليّ والله ما كان على الأرض من دين أبغض اليّ من دينك فقد أصبح أحب الدين كله اليّ والله ما كان من بلد أبغض الي من بلدك فقد أصبح أحب البلاد اليّ) فسر عليه السلام كثيرًا باسلامه لأن من ورائه قومًا يطيعونه ولما رجع ثمامة الى بلاده مر بمكة معتمرًا وأظهر فيها اسلامه فأرادت قريش إيذاءه فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثمامة فتركوه ومع ذلك فقد حلف هو أن لا يرسل اليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا فجهدوا جدًّا ولم يروا بدًّا من الاستغاثة برسول الله فعاملهم عليه السلام بما جبل عليه من الشفقة والمرحمة وأرسل لثمامة أن يعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة في الاسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتد أكثر أهل بلاده فكان ينهى قومه عن اتباع مسيلمة ويقول لهم اياكم وأمرًا مظلماً لا نور فيه وانه لشقاء كتبه الله على من اتبعه فثبت معه كثير من قومه رضي الله عنه

﴿ غزوة بنى لحيان ﴾

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت واخوانه ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم متشوفاً للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من

هذه السنة فأمر أصحابه بالتجهز ولم يظهر لهم مقصده كما هي عادته عليه السلام في غالب الغزوات لتعمي الأخبار عن الأعداء وولى على المدينة ابن أم مكتوم وسار في مائتي راكب معهم عشرون فرساً ولم يزل سائرًا حتى مقتل أصحاب الرجيع فترحم عليهم ودعا لهم ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا في الجبال فأقام عليه السلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحدًا ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عسفان (١) حتى يعلم بهم أهل مكة فيداخلهم الرعب فذهبوا الى كراع الغميم (٢) ثم رجع عليه السلام الى المدينة وهو يقول (آيبون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال)

﴿ غزوة الغابة ﴾

كان للنبي عليه السلام عشرون لقحة ترعى بالغابة (٣) فأغار عليها عيينة بن حصن في أربعين راكباً واستلبها من راعيها فجاءت الأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام والذي بلغه هو سلمة بن الأكوع أحد رماة الأنصار وكان عدّاء فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون فخرج يشتد في أثرهم

(١) موضع قرب مكة (٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال
(٣) موضع على بر د من المدينة جهة غطفان

حتى لحقهم وجعل يرميهم بالنبل فاذا وجهت الخيل نحوه رجع هارباً فلا يلحق فاذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيرًا مما بأيديهم من الرماح والابراد ليخففوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش فان الرسول دعا أصحابه فأجابوه وأول من انتهى اليه المقداد بن الأسود فقال له اخرج في طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء فخرج وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدوّ فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان واستنقذ المسلمون غالب اللقاح وهرب أوائل القوم بالبقية وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة في أثر القوم ليأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم فقال له عليه السلام (ملكت فأسجح) ثم رجع بعد خمس ليال

﴿ سرية ﴾

كان بنو أسد الذين مر ذكرهم كثيرًا ما يؤذون من يمر بهم من المسلمين فأرسل لهم عليه السلام عكاشة بن محصن في أربعين راكبًا ليغير عليهم ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا وهناك وجدوا رجلاً نائمًا فأمنوه ليدلهم على نعم القوم فدلهم عليها فاستاقوها وكانت مائة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيدًا

﴿ سرية ﴾

وفي ربيع الأول بلغه عليه السلام أن من بذي القصة (١) يريدون الاغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء (٢) فأرسل لهم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين فبلغ ديارهم ليلاً وقد كمن لهم المشركون حينما علموا بهم فنام المسلمون ولم يشعروا الا والنبل قد خالطهم فتواثبوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قتل فعاد الى المدينة وأخبر الرسول عليه السلام فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر ليقتص من الأعداء فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نعمهم ورجع

﴿ سرية ﴾

عاكس بنو سليم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين في سيرهم فأرسل عليه السلام زيد بن حارثة في ربيع الآخر ليغير عليهم في الجموم (٣) فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا ووجدوا هناك امرأة من مزينة دلتهم على منازل بني سليم فأصابوا بها نعماً وشاء

(١) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة في طريق الربذة
(٢) موضع قرب المدينة (٣) ناحية من بطن نخل

ووجدوا رجالاً أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك الى المدينة فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها

﴿ سرية ﴾

بلغ الرسول أن عيرًا لقريش أقبلت من الشام تريد مكة فأرسل لها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكبًا ليعترضها فأخذها وما فيها وأسر من معها من الرجال وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانة فاستجار بزوجه زينب فأجارته ونادت بذلك في مجمع قريش فقال عليه السلام (المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرت) وهذا أبلغ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين ورد عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً فذهب الى مكة فأدّى لكل ذي حق حقه ورجع الى المدينة مسلماً فرد عليه رسول الله زوجه

﴿ سرية ﴾

وفي جمادى الآخرة أرسل عليه السلام زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً للاغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم مقيمون بالطرف (١) فتوجهت السرية لذلك ولما رآهم الأعداء ظنوهم

---

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق العراق

طليعة لجيش رسول الله فهربوا وتركوا نعمهم وشاءهم فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليال

﴿ سرية ﴾

وفي رجب أرسل عليه السلام زيد بن حارثة ليغير على بني فزارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام فسلبوا ما معه وكادوا يقتلونه فلما جاء المدينة وأخبر الرسول الخبر أرسله مع رجاله للقصاص من فزارة المقيمين في وادي القرى (١) فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة فاستوهبها عليه السلام ممن أسرها وفدي بها أسيراً كان بمكة

﴿ سرية ﴾

وفي شعبان أرسل عليه السلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل (٢) وقد وصاهم عليه السلام قبل السفر بقوله (اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلن من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم) ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلوا بديار العدو

(١) موضع شمالي المدينة (٢) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليال وبين المدينة خمس عشرة ليلة

فدعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو النصراني وأسلم معه جمع من قومه وبقي آخرون راضين باعطاء الجزية فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم كما أمره بذلك عليه السلام وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الود بين الأمراء بحيث يهم كلاً ما يهم الآخر فنعما هي سياسة السلم والمحبة

﴿ سرية ﴾

وفي شعبان أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في مائة لغزو بني سعد بن بكر بفدك (١) لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يعطونه من تمر خيبر فسارت السرية وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدوّ أرسلوه الى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها فطلبوا منه أن يدلهم على القوم وهو آمن فدلهم على موضعهم فاستاق منه المسلمون نعم القوم وهرب الرعاة فحذروا قومهم فداخلهم الرعب وتفرقوا فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفا شاة ورد الله كيد المشركين فلم يمدوا اليهود بشيء

﴿ قتل أبي رافع ﴾

وكان المحرك لأهل خيبر على حرب المسلمين هو سيدهم أبو رافع

(١) قرية بينها وبين المدينة ست ليال من جهة خيبر

سلام بن أبي الحقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز لما كان له من المهارة في التجارة وكان ذا ثروة طائلة يقلب بها قلوب اليهود كما يريد فانتدب له عليه السلام من يقتله فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عتيك ليكون لهم مثل أجر اخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فان من نعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله فلا تعمل الأوس عملاً الا اجتهد الخزرج في مثله فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصاهم أن لا يقتلوا وليدًا ولا امرأة فساروا حتى أتوا خيبر فقال عبد الله لأصحابه مكانكم فاني منطلق للبواب ومتلطف له لعلي أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوب كأنهُ يقضي حاجته وقد دخل الناس فهتف به البوَّاب ادخل يا عبد الله ان كنت تريد الدخول فاني أريد أن أغلق الباب فدخل وكمن حتى نام البوَّاب فأخذ المفاتيح وفتح ليسهل له الهرب ثم توجه الى بيت أبي رافع وصار يفتح الأبواب التي توصل اليه وكلما فتح باباً أغلقهُ من داخل حتى انتهى اليهِ فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى يا أبا رافع قال من فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً وعند ذلك قالت امرأته هذا صوت ابن أبي عتيك فقال لها ثكلتك أمك وأين ابن أبي عتيك الآن فعاد عبد الله للنداء مغيرًا صوته قائلاً ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع

قال لأمك الويل ان رجلاً في البيت ضربني بالسيف فعمد اليه فضربه أخرى لم تغن شيئاً فتوارى ثم جاءه كالمغيث وغير صوته فوجده مستلقياً على ظهره فوضع السيف في بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السلم فانكسرت رجله فعصبها بعمامته ثم انطلق الى أصحابه وقال النجاة قتل والله أبو رافع فانتهوا الى الرسول فحدثوه ثم قال لعبد الله أبسط رجلك فمسحها عليه السلام فكأنه لم يشتكها قط وعادت أحسن ما كانت فانظر رعاك الله الى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في ارضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضي الله عنهم وأرضاهم

﴿ سرية ﴾

(ولما) قتل كعب ولى اليهود مكانه أسير بن رزام فأرسل عليه السلام من يستعلم له خبره فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحد قبلي أسير الى غطفان فأجمعهم لحربه وسعى في ذلك فأرسل له عليه السلام عبد الله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالته فخرجوا حتى قدموا خيبر وقالوا لأسير نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له قال نعم ولي مثل ذلك فأجابوه ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيوليه الرسول

على خيبر فيعيش أهلها بسلام فأجاب الى ذلك وخرج في ثلاثين يهودياً كل يهودي رديف لمسلم وبينما هم في الطريق ندم أسير على مجيئه وأراد التخلص مما فعل بالغدر بمن أمنوه فأهوى بيده الى سيف عبد الله بن رواحة فقال له أغدرًا يا عدوّ الله ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامة فخذه ولم يلبث أن هلك فقام المسلمون على من معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم وهذا عاقبة الغدر

﴿ قصة عكل وعرينة ﴾

قدم على رسول الله في شوال جماعة من عكل وعرينة فأظهروا الاسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاماً مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم فلم يوافقهم هواء المدينة فأمر لهم عليه السلام بذود من الابل معها راع وأمرهم باللحوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا ولما تم شفاؤهم جازوا الاحسان كفرًا فقتلوا الراعي ومثلوا به واستاقوا الابل فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كرز بن جابر الفهرى في عشرين فارساً فلحقوا بهم وقبضوا على جميعهم ولما جيء بهم الى المدينة أمر عليه السلام أن يمثل بهم كما مثلوا بالراعي فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا بالحرة حتى ماتوا فهكذا يكون جزاء الخائن الذي لا ينتظر منه صلاح وعمل هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم

العشيرة وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن المثلة

﴿ سرية ﴾

جلس أبو سفيان بن حرب يوماً في نادي قومه فقال ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدرًا فانه يمشي بالأسواق لنستريح منه فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد فأعطاه راحلة ونفقة وجهزه لذلك فخرج الرجل حتى وصل الى المدينة صبح سادسة من خروجه فسأل عن رسول الله فدل عليه وهو بمسجد بني عبد الأشهل فلما رآه عليه السلام قال ان هذا الرجل لير يد غدرًا وان الله مانعي منه فذهب لينحني على الرسول فجذبه أسيد بن حضير من إزاره وهنالك سقط الخنجر فندم الرجل على فعلته ثم سأله عليه السلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثق من حفظ دمه فخلي عليه السلام سبيله فقال الرجل والله يا محمد ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ثم انك اطلعت على ما هممت به مما لم يعلمه أحد فعرفت انك ممنوع وانك على حق وان حزب أبي سفيان حزب الشيطان ثم أسلم وعند ذلك أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمري وكان رجلاً جريئاً فاتكاً في الجاهلية وأصحبه برفيق ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه فلما قدما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له فعرف عمرًا أحد رجال مكة فقال هذا عمرو بن

أميـة ما جاء الا بشرّ فلما رآهم علموا به لم يجـد مناصاً من الهرب فاصطحب معه رفيقه ورجعا الى المدينة وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يسلم بيده مفاتيح مكة للمسلمين ويعتنق الدين الحنيفي القويم

﴿ غزوة الحديبية ﴾

رأى عليـه السلام في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه حذرًا من أن تردهم قريش عن عمرتهم ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤا عليه لأنهم ظنوا أن لا ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدًا وتخلصوا بأن قالوا شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا فخرج عليه السلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدتهم ألفاً وخمسمائة وولى على المدينة ابن أم مكتوم وأخرج معه زوجه أم سلمة وأخرج الهدي ليعلم الناس أنه لم يأت محاربًا ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح الا السيوف في القُرب لأن الرسول لم يرض أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ثم سار الجيش حتى وصل عسفان (١) فجاءه عينه يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدوا

(١) موضع على مرحلتين من مكة

المسلمين عن مكة وأن لا يدخلوها عليهم عنوة أبدًا وتجهزوا للحرب وأعدوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم فقال عليه السلام هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله فسار بهم في طريق وعرة ثم خرج بهم الى مستو سهل يملك مكة من أسفلها فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع الى قريش وأخبرهم الخبر ولما كان عليه السلام بثنية المرار (١) بركت ناقته فزجروها فلم تقم فقالوا خلأت القصواء فقال عليه السلام ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والذي نفس محمد بيده لا تدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله الا أجبتهم اليها . مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم ولكن كف الله أيدي المسلمين عن قريش وكف أيدي قريش عن المسلمين كيلا تنتهك حرمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرمًا آمنًا يوطد المسلمون من جميع الأقطار دعائم أخوتهم فيه ثم أمرهم عليه السلام بالنزول أقصى الحديبية (٢) وهناك جاء بديل بن ورقاء الخزاعي رسولاً من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين فأخبره عليه السلام بمقصده فلما رجع بديل الى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت كذلك لأجداده وقالوا أيريد محمد أن

(١) مهبط الحديبية (٢) بئر قرب مكة سميت الأرض باسمها

يدخل علينا في جنوده معتمرًا تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا والله لا كان هذا أبدًا ومنا عين تطرف ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحابيش وهم حلفاء قريش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يعظمون الهدي ابعثوه في وجهه حتى يراه ففعلوا واستقبله الناس يلبون فلما رأى ذلك حليس رجع وقال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب هلكت قريش ورب البيت ان القوم أتوا معتمرين فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له اجلس انما أنت أعرابي لا علم لك بالمكايد ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فتوجه الى رسول الله وقال يا محمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت الى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم انها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك فقال منه أبو بكر وقال نحن ننكشف عنه ويحك وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده اذا أراد ذلك ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه لا يتوضأ وضوءًا الا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به واذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ولا يحدون النظر اليه فقال والله يا معشر قريش جئت كسرى في ملكه وقيصر في عظمته فما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه ولقد

رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبدًا فانظروا رأيكم فانه عرض عليكم رشدًا فاقبلوا ما عرض عليكم فاني لكم ناصح مع أني أخاف أن لا تنصروا عليه فقالت قريش لا تتكلم بهذا ولكن نرده عامنا ويرجع الى قابل ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده الى قريش حتى يعلمهم مقصده فتوجه وتوجه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم وأمر عليه السلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة فيبشرهم بقرب الفتح وان الله مظهر دينه فدخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد الأموي فبلغ ما حمل فقالوا ان محمدًا لا يدخلها علينا عنوة أبدًا ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت فقال لا أطوف ورسول الله ممنوع ثم انهم حبسوه فشاع عند المسلمين أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما سمع ذلك لا نبرح حتى نناجزهم الحرب

﴿ بيعة الرضوان ﴾

ودعا الناس للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك (١) (سميت بعد بشجرة الرضوان) على الموت فشاع أمر هذه البيعة في قريش فداخلهم منها رعب عظيم وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين علهم يصيبون منهم غرة فأسرهم

(١) أمر عمر بقطعها زمن خلافته لما رأى تبرك الناس بها فليتأمل

حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم ولما علمت بذلك قريش جاء جمع منهم وابتدؤا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم اثنا عشر رجلاً وقتل من المسلمين واحد

﴿ صلح الحديبية ﴾

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بن عمرو للمكالمة في الصلح فلما جاء قال يا محمد ان الذي حصل ليس من رأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منا فابعث الينا بمن أسرت فقال حتى ترسلوا من عندكم وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش وهي (١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات (٢) من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده (٣) أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح الا السيف في القراب والقوس (٤) من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه فقبل عليه السلام كل هذه الشروط . أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا سبحان الله كيف نرد اليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً فقال عليه السلام

انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . أما الأمر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيرًا في قلوبهم لأن الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه وهل ذكر أنه في هذا العام . ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين وكان الكاتب علي بن أبي طالب فأملاه عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل اكتب باسمك اللهم فأمره الرسول بذلك ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبد الله فأمر عليه السلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع فمحاها النبي بيده . وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل في قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه فقال عليه السلام اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدًا فلا نغدر بهم . هذا وقد دخلت قبيلة خزاعة في عهد رسول الله ودخل بنو بكر في عهد قريش

ولما انتهى الأمر أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم

وينحروا الهدي ليتحللوا من عمرتهم فاحتمل المسلمون من ذلك هماً عظيماً حتى انهم لم يبادروا بالامتثال فدخل عليه السلام على أم المؤمنين أم سلمة وقال لها هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا فقالت يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمرًا عظيماً في الصلح ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت تبعوك فتقدم عليه السلام الى هديه فنحره ودعا بالحلاق فحلق رأسه فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا ثم رجع المسلمون الى المدينة وقد أمن كل فريق الآخر ولما قرّ قرارهم جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه فطلبها المشركون فقالت يا رسول اني امرأة وان رجعت اليهم فتنوني في ديني فأنزل الله في سورة الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم) فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ماخرجت رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين وما خرجت الا حباً لله ولرسوله ومتى حلفت لا ترد

بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ويجوز للمسلم تزوجها وفي الآية تحريم امساك الزوجة الكافرة بل ترد الى أهلها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها (وقد تمكن) أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي رضي الله عنه من الفرار الى رسول الله فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه فأمره عليه السلام بالرجوع معهما فقال يا رسول الله أترددني الى الكفار يفتنوني في ديني بعد أن خلصني الله منهم فقال ان الله جاعل لك ولاخوانك فرجاً فلم يجد بدًّا من اتباعه فرجع مع صاحبيه ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحدهما فقتله وهرب منه الآخر فرجع الى المدينة وقال يا رسول الله وفت ذمتك أما أنا فنجوت فقال له اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة فذهب الى محل بطريق الشام تمر به تجارة قريش فأقام به واجتمع معه جمع ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا وسار اليه أبو جندل بن سهيل واجتمع اليه جمع من الأعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الامداد فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في إبطال هذا الشرط ويعطونه الحق في امساك من جاءه مسلماً فقبل منهم ذلك وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي لم يتمكنوا من تحملها في الحديبية حينما أمرهم عليه السلام برد أبي جندل وعلموا أن رأي رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر

رضى الله عنه ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه في أولها (انا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدمنا لك عن الصديق

﴿ مكاتبة الملوك ﴾

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش كاتب عليه السلام ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام واتخذ اذذ اك خاتماً من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبي بكتاب الى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه الى عظيم بصرى ليوصله الى الملك

﴿ كتاب قيصر ﴾

وكان في الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم) من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين (١) ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم

(١) الفلاحين

أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

﴿ حديث أبي سفيان ﴾

ولما وصل هـذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا من قومه أحدًا نسأله عنـه وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فقال أبو سفيان أنا لأنه لم يكن في الركب من بني عبـد مناف غيره فقال قيصر ادن مني ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه قل لأصحابه انما قدمت هـذا أمامكم لأسأله عن هـذا الرجل الذي يزعم أنه نبي وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم . قال هو فينا ذو نسب . قال هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله قال لا . قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال قال لا . قال فهل كان من آبائه من ملك قال لا . قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم قال بل ضعفاؤهم . قال فهـل يزيدون أم ينقصون قال بل يزيدون . قال هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه قال لا . قال هل يغدر اذا عاهد

قال لا . ونحن الآن منه فى ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها . قال فهل قاتلتموه قال نعم . قال فكيف حربكم وحربه قال الحرب بيننا وبينه سجال مرة لنا ومرة علينا قال فبم يأمركم قال يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهي عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . فقال الملك اني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم . وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه فقلت لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بينكم وبينه سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك بماذا يأمر فزعمت انه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا

وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبي وقد علمت انه مبعوث ولم أظن انه فيكم وان كان ما كلمتني به حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ولو أعلم أني أخلص اليه لتكلفت ذلك قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم فلا أدري ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر . ولما سار قيصر الى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له ثم أمر بأبوابها فأغلقت ثم قال يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردوهم عليّ فقال لهم اني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فسكتوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب بإثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ولكنه رد دحية ردًّا جميلاً

﴿ كتاب أمير بصرى ﴾

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب الى أمير بصرى فلما بلغ مؤتة وهي قرية من عمل البلقاء بالشام تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له أين تريد قال الشام قال لعلك من رسل محمد قال نعم فأمر به فضربت عنقه ولم يقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره وقد وجد لذلك وجدًا شديدًا

﴿ كتاب الحارث بن أبي شمر ﴾

ووجه عليه السلام شجاع بن وهب الى أمير دمشق من قبل هرقل الحارث بن أبي شمر وكان يقيم بغوطتها وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الحارث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق واني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به وقال من ينزع ملكي مني واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى ثم أرسل الى قيصر يستأذنه في ذلك وصادف أن كان عنده دحية فكتب قيصر اليه يثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيئ بايليا ما يلزم لزيارته فانه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها فلما رأى الحارث كتاب قيصر صرف شجاع بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة

﴿ كتاب المقوقس ﴾

ووجه عليه السلام حاطب بن أبي بلتعة بكتاب الى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان توليت فانما عليك

اثم القبط ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة الآية) فأوصله له حاطب باسكندرية فلما قرأه قال ما منعه ان كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده فقال حاطب ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله اليه قال أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم ثم قال اني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهي عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة النبوة اخراج الغائب المستور والاخبار بالنجوى وسأنظر ثم كتب رد الجواب يقول فيه (بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت اليك بغلة تركبها والسلام) واحدى الجاريتين مارية التي تسرى بها عليه الصلاة والسلام وجاء منها بولده ابراهيم والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس

(كتاب النجاشي)

ووجه عليه السلام عمرو بن أمية الضمري بكتاب الى النجاشي

ملك الحبشة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي عظيم الحبشة سلام أما بعد فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده واني أدعوك الى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فاني رسول الله واني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى) ولما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام وقال لعمرو اني أعلم والله أن عيسى بشرَ به ولكن أعواني بالحبشة قليل فأنظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب . وقد عرض عمرو على من بقى من مهاجري الحبشة الرجوع الى رسول الله بالمدينة وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر فتزوج عليه السلام أم حبيبة وهى بالحبشة والذي زوجها له النجاشي بتوكيل منه عليه السلام

﴿ كتاب كسرى ﴾

ووجه عليه السلام عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب الى كسرى

ملك الفرس وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فاني أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فان أبيت فانما عليك اثم المجوس) فلما وصله الكتاب مزقه استكبارًا ولما بلغه عليه السلام ذلك قال (مزق الله ملكه كل ممزق) وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطًا وقد بدأ هذا الشق بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه الى الرسول من يأتي به اليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ثم أرسل لعامل اليمن ينهاه عما أمره به أبوه

﴿ كتاب المنذر بن ساوى ﴾

ووجه عليه السلام العلاء بن الحضرمى بكتاب الى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه الى الاسلام وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم سلم أنت فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو أما بعد فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول من أحب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فان عليه الجزية) فأسلم وكتب في رد الجواب (أما بعد يا رسول الله فاني قرأت كتابك

على أهل البحرين فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه وبأرضي مجوس ويهود فأحدث اليّ في ذلك أمرك) فكتب اليه عليه السلام (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المنذر ابن ساوى سلام عليك فاني أحمد الله اليك الذي لا إله الا هو وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدًا عبده ورسوله أما بعد فاني أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي وان رسلي قد أثنوا عليك خيرًا واني شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية)

﴿ كتاب ملكي عمان ﴾

ووجه عليه السلام عمرو بن العاص بكتاب الى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى جيفر وعبد ابني الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فاني رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين وانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما فان ملككما زائل وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما)

فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد بن الجلندي عما يأمر به الرسول وينهي عنه فقال يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهي عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب فقال ما أحسن هذا الذي يدعو اليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعاً قال عمرو ان أسلم أخوك ملّكه رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم فقال عبد ان هذا الخلق حسن وما الصدقة فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال ولما ذكر المواشي قال يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه قال نعم فقال عبد والله ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا ثم ان عبداً أوصل عمراً لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألان قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومكناه من الصدقات

﴿ كتاب هوذة بن علي ﴾

ووجه عليه السلام سليط بن عمرو العامري بكتاب الى هوذة بن علي ملك اليمامة وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هوذة بن علي سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك) فلما جاء

الكتاب كتب في رده (ما أحسن ما تدعو اليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك) ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت باد وباد ما في يديه فلم يلبث أن مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وكان عليه السلام يولي على كل قوم قبلوا الاسلام كبيرهم

﴿ السنة السابعة غزوة خيبر ﴾

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه السلام بالتجهز لغزو يهود خيبر الذين كانوا أعظم مهيج للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق والذين لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضد رسول الله كما قدمنا ذلك في قصة كعب بن الأشرف وقد استنفر رسول الله لذلك من حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية وجاء المخلفون عنها ليؤذن لهم فقال عليه السلام لا تخرجوا معي الا رغبة في الجهاد أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً وأمر منادياً ينادي بذلك ثم خرج عليه السلام بعد أن ولى على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى وكان معه من أزواجه أم سلمة ولما وصل جيش المسلمين الى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء فقال عليه السلام

(ارفقوا بأنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم) وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلا بعضها عن بعض وهي حصون النطاة وحصون الكتيبة وحصون الشق والأولى ثلاثة : حصن ناعم وحصن الصعب وحصن قلة والثانية حصنان حصن أبي وحصن البريء والثالثة ثلاثة حصون حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السلالم فبدأ عليه السلام بحصون النطاة وعسكر المسلمون شرقيها بعيدا عن مدى النبل وأمر عليه السلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة ولما رأى عليه السلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم فالمراماة وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع في ذلك اليوم شيئا وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة وصار عليه السلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ويخلف على العسكر أحد المسلمين حتى اذا كانوا في الليلة السابعة ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودي خارج في جوف الليل فأتى به رسول الله عليه السلام ولما أدرك الرجل الرعب قال ان أمنتموني أدلكم على أمر فيه نجاحكم . فقالوا دلنا فقد أمناك فقال ان أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب وقد تركتهم يبعثون بأولادهم الى حصن الشق وسيخرجون لقتالكم غدا فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا فاني أدلكم على بيت فيه منجنيق

ودبابات (١) ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون فانكم تنصبون المنجنيق و يدخل الرجال تحت الدبابات فينقبون الحصن فتفتحه من يومك فقال عليه السلام لمحمد بن مسلمة سأعطي الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها حتى قال عمر بن الخطاب ما تمنيت الامارة الا ليلتئذ فلما كان الغد سأل عليه السلام عن علي بن أبي طالب فقيل له انه أرمد فأرسل من يأتيه به ولما جاء تفل في عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء ثم أعطاه الراية فتوجه مع المسلمين للقتال وهناك وجدوا اليهود متجهزين فخرج يهودي يطلب البراز فقتله علي ثم خرج مرحب وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوّام ثم حمل المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء الى الحصن الذي يليه وهو حصن الصعب وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيرًا من الخبز والتمر ثم تتبعوا اليهود الى حصن الصعب فقاتل عنه اليهود قتالاً شديدًا حتى رد عنه المسلمون ولكن ثبت الحباب ابن المنذر ومن معه وقاتلوا قتالاً شديدًا حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها

السلام منادياً يقول كلوا واعلفوا دوابكم ولا تأخذوا شيئاً . ثم ان الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا الى حصن قلة فتبعهم المسلمون وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه وفي اليوم الرابع دلهم يهودي على جداول الماء التي يستقى منها اليهود فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم الى حصون الشق فتبعهم المسلمون و بدؤوا بحصن أبي فخرج أهله وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دُجانة الأنصاري بلاءً حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً وطعاماً وهرب المنهزمون منه الى حصن البريء فتمنعوا به أشد التمنع وكان أهله أشد اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع في قلب أهله الرعب وهربوا منه من غير عناء شديد فوجد فيه المسلمون أواني لليهود من نحاس وفخار فقال عليه السلام اغسلوها واطبخوا فيها ثم تتبع المسلمون بقايا العدوّ الى حصون الكثيبة و بدؤوا بحصن القموص فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي ابن أبي طالب ومنه سبيت صفية بنت حيّ بن أخطب ثم سار المسلمون لحصار حصني الوطيح والسلالم فلم يقاوم أهلهما بل سلموا طالبين حقن دمائهم وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره فأجابهم رسول الله الى ذلك وغنم المسلمون

من هـذين الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة قوس عربيـة ووجدوا صحفاً من التوراة فسلموها لطالبها وقد أمر عليه السلام بقتـل كنانة بن أبي الحقيق لأنه أنكر حليّ حيّ بن أخطب وقد عثر عليها المسلمون فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك

(هـذا) والذين استشهدوا من المسلمين بخيـبر خمسة عشر رجلاً وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً وفي هـذه الغزوة أهدت احدى نساء اليهود كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لفظها حيث علم أنها مسمومة وأكل منها بشر بن البراء فمات لوقته واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيء له بالمرأة التي فعلت هـذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك فأجابت قالت ان كان نبياً لن يضره وان كان كاذباً أراحنا الله منه فعفا عنها عليه السلام

﴿ زواج صفية ﴾

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه السلام صفية بنت حيّ سيد بني النضير وأصدقها عتقها وقد أسلمت رضي الله عنها فشرفت بأمومة المؤمنين

﴿ النهي عن نكاح المتعة ﴾

(ونهى) عليه السلام وهو بخيـبر عن نكاح المتعة وهي النكاح

لأجل وقد كان حلاً في الجاهلية واستعمل في بدء الاسلام حتى حرمه الشرع في هذه السنة (ونهى) كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها

(رجوع مهاجري الحبشة)

(وحين) رجوع المسلمين من خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبي طالب ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه بعد أن أقاموا فيها نحوًا من عشر سنين آمنين مطمئنين وفرح عليه السلام بمقدمهم فرحاً عظيماً وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين (وقدم) في هذا الوقت على النبي عليه السلام الدوسيون اخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم فأعطاهم أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم

(فتح فدك)

وبعد تمام الفتح أرسل عليه السلام من يطلب من يهود فَدَك(١) الانقياد والطاعة فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصة ينفق منها على نفسه ويعول منها صغير بني هاشم ويزوج منها أيمهم

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليال من المدينة

﴿ صلح تيماء ﴾

ولما بلغ يهود تيماء (١) ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين

﴿ فتح وادي القرى ﴾

ثم دعا عليه السلام يهود وادي القرى الى الاستسلام فأبوا وقاتلوا فقاتلهم المسلمون وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً وغنموا منهم مغانم كثيرة خمسها عليه السلام وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يخرجون منها وكذلك صنع بأرض خيبر وكان يرسل اليهم عبد الله ابن رواحة لتقدير الثمر وكان تقديره شديداً عليهم فأرادوا أن يرشوه فقال لهم يا أعداء الله تعطوني السحت والله لقد جئتكم من عند أحب الناس اليّ ولأنتم أبغض اليّ من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل (هذا) وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدوّ كان يتربص بهم الدوائر مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين

(١) قرية على ثمان مراحل من المدينة

﴿ اسلام خالد ورفيقيه ﴾

وأعقب هذه الغزوة وهـذا الفتح المبين اسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليـد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم خالد بن الوليد المخزومي وعمرو بن العاصى السهمي وعثمان بن أبى طلحة العبدري فسرّ بهم عليه السلام سرورًا عظيماً وقال لخالد (الحمـد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك الا الى خير) فقال يا رسول الله ادع الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك فقال له عليه السلام (الاسلام يقطع ما قبله)

﴿ سرية ﴾

وفي شعبان بلغه عليه السلام أن جمعاً من هوازن بتربة (١) يظهرون العداوة للمسلمين فأرسل لهم عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً فسار اليهم ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحدًا فرجع

﴿ سرية ﴾

(ثم) أرسـل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرة بناحيـة فدك فلما ورد بلادهم لم ير منهم أحدًا فأخذ نعمهم أما القوم فكانوا

(١) واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها

في الوادي فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيرًا ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديدًا حتى قتل غالب المسلمين وجرح بشير جرحاً شديدًا حتى ظن أنه مات ولما انصرف عنه العدوّ تحامل حتى جاء الى رسول الله وأخبره الخبر (وفي) رمضان أرسل عليه السلام غالب بن عبيد الله الليثى الى أهل الميفعة (١) في مائة وثلاثين رجلاً فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين وفي أثناء الحرب طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين ولما رأى المشرك الموت في يد أسامة تشهد فظن أسامة أن عدوّه انما قال ذلك تخلصاً فقتله ولما رجع المسلمون الى المدينة وأخبر عليه السلام بفعلة أسامة قال أقتلته بعد أن قال لا اله الا الله فكيف تصنع بلا اله الا الله قال يا رسول الله انما قالها متعوذاً من القتل قال عليه السلام فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب فقال يا رسول الله استغفر لي قال عليه السلام فكيف بلااله الا الله فما زال يكررها حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم وأنزل الله في ذلك في سورة النساء (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) ثم أمر عليه السلام أسامة أن يعتق رقبة كفارة لأنه قتل خطأ

---

(١) على ثمانية برد من المدينة بناحية نجد

﴿ سرية ﴾

(وفي) شوال بلغه عليه السلام أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يمن وجبار للاغارة على المدينة فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاثمائة رجل فساروا اليهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم فأصابوا نعماً كثيرة وتفرق الرعاء فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعليا بلادهم ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما ثم رجعوا بالغنائم الى المدينة

﴿ عمرة القضاء ﴾

لما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بمن صد معه فيها ليقضي عمرته واستخلف على المدينة أبا ذرّ الغفاري وساق معهُ الهدي ستين بدنة وأخرج معه السلاح حذرًا من غدر قريش وكان معه مائة فرس عليها بشير بن سعد وأحرم عليه السلام من باب المسجد المدني ولما انتهى الى ذي الحليفة قدم الخيل أمامهُ فقيل يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا أن لا تحمله فقال عليه السلام لا ندخل الحرم به ولكن يكون قريباً منا فان هاجنا هائج فزعنا له فلما كان بمرّ الظهران قابله نفر من قريش ففزعوا من هذه العدة وأسرعوا الى قومهم فأخبروهم فجاءه فتيان منهم وقالوا والله يا محمد ما عرفت بالغدر صغيرًا

ولا كبيرًا وإنا لم نحدث حدثًا فقال انا لا ندخل الحرم بالسلاح ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت فدخل عليه السلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثنية كداء وأمامه عبد الله بن رواحة يقول لا إله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهارًا للقوة لأن المشركين قالوا سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب فقال عليه السلام رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة واضطبع عليه السلام بردائه وكشف عضده اليمنى شأن الفتوّة وفعل مثله المسلمون وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه السلام في منامه

﴿ زواج ميمونة ﴾

وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وخالة عبد الله بن العباس وهي آخر نسائه زواجًا ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان بسرف (١) ولما خرج عليه السلام أمر الذين كان تركهم لحراسة

(١) موضع قرب التنعيم

الخيـل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ثم رجع عليه السلام الى المدينة فرحاً مسروراً بما حباه الله به من تصديق رؤياه

﴿ السنة الثامنة ﴾

(سرية)

وفي صفر أرسـل عليه السلام غالب بن عبـد الله الليثى الى بني الملوّح وهم قوم من العرب يسكنون بالكديد (١) فسار القوم حتى اذا كانوا بقديد التقوا بالحارث بن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء وكان خصماً لدوداً للمسلمين فأسروه فقال لهم ما جئت الا للاسـلام فقالوا له ان تكن مسلماً لن يضرك رباط ليلة والا استوثقنا منك ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوّح فاستاقوا النعم والشاء وخرج الصريخ الى القوم فجاءهم ما لا قبـل لهم به ولكن مَنّ الله على المسلمين فأرسل سيلاً شديداً حال بينهم وبين عدوّهم حتى صار المشركون يرون نعمهم تساق وهم لا يقدرون على ردها

﴿ سرية ﴾

ولما رجع غالب الى المدينة ظافراً أرسله عليه السلام في مائتي رجل

(١) موضع بين عسفان وقديد

ليقتص من بني مرة بفدك وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد فساروا حتى اذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمرًا فانه لا رأي لمن لا يطاع) ثم آخى بين الجند فقال يا فلان أنت وفلان ويا فلان أنت وفلان لا يفارق أحد منكم زميله وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك فيقول لا أدري فاذا كبرت فكبروا فلما أحاطوا بالعدو وكبر كبروا وجردوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعرة

﴿ سرية ﴾

(وفي) ربيع الأول أرسل عليه السلام كعب بن عمير الغفاري الى ذات اطلاح من أرض الشام في خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيرًا فدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوا وقاتلوا وكانوا أكثر عددًا فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عمير فانه نجا وأتى بالخبر الى رسول الله فشق عليه وأراد أن يبعث اليهم من يقتص منهم فبلغه أنهم تحولوا من منزلهم فعدل عن ذلك

﴿ غزوة مؤتة ﴾

جهز عليه السلام في جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسوله الى أمير بصرى وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال لهم ان أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب فان أصيب فعبد الله بن رواحة وكان عدة الجيش ثلاثة آلاف فساروا وشيعهم عليه السلام وكان فيما وصاهم به (أغزوا باسم الله فقاتلوا عدوّ الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرًا ولا بصيرًا فانياً ولا تقطعوا شجرًا ولا تهدموا بناء) ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مؤتة (١) مقتل الحارث بن عمير وهناك وجدوا الروم مجمعين لهم جمعاً عظيماً منهم ومن العرب المتنصرة فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مددًا أم يقدمون على الحرب فقال عبد الله بن رواحة يا قوم والله ان الذي تكرهون هو ما خرجتم له خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة ما نقاتل الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانما هي احدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة فقال الناس صدق والله ابن رواحة ومضوا للقتال فلقوا هذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد بن حارثة رضي

(١) قرية قريبة من الكرك وهي مشارف الشام

الله عنه حتى استشهد فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب وهو يقول

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد فقال يخاطب نفسه

أقسمت يا نفس لتنزلنه طائعة أو لا لتكرهنه
ان أجلب الناس وشدوا الرنه مالي أراك تكرهين الجنه
قد طالما كنت مطمئنة هل أنت الا نطفة في شنة

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ولم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى استشهد فهمّ بعض المسلمين بالرجوع الى الوراء فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم يقتل الانسان مقبلاً خير من أن يقتل مدبرًا فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد وبهمته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً فانه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديدًا وفي غده خالف ترتيب العسكر فجعل الساقة مقدمة والمقدمة ساقة والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة فظن الروم أن المدد جاء للمسلمين فرعبوا ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع الى الوراء حتى انحاز الى مؤتة ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان

لأن الكفار ظنوا أن الامداد تتوالى للمسلمين وخافوا أن يجروهم الى وسط الصحاري حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع القتال وقد نعى النبي صلى الله عليه وسلم زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عينا رسول الله تذرفان ثم قال حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم وجاءه رجل فقال يا رسول الله ان نساء جعفر يبكين فأمره أن ينهاهن فذهب الرجل ثم أتى فقال قد نهيتهن فلم يطعن فأمره فذهب ثانيًا ثم جاء فقال والله لقد غلبننا فقال له عليه السلام أحث في أفواههن التراب ولما أقبل الجيش الى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم يا فرّار فقال عليه السلام بل هم الكرار . ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد في مهارته

﴿ سرية ﴾

وفي جمادى الآخرة بلغه عليه السلام أن جمعًا من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سراة المهاجرين ثم أمده بأبي عبيدة

ابن الجراح في مائتين من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر فلحقوا عمرًا قبل أن يصل الى القوم وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو فأنكر عليه عمر بن الخطاب فقال أبو بكر انما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه فامتثل ولما حلوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ثم رجعوا الى المدينة ظافرين وبينما هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فلما أصبح قال ان أنا اغتسلت هلكت والله يقول (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) ثم تيمم وصلى ثم أمر بالسير حتى اذا وصلوا المدينة قام رسول الله عليه السلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن ايقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته جنباً فسأله عليه السلام عن ذلك فقال منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين وصليت جنباً لأن الله يقول (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وان أنا اغتسلت هلكت فتبسم عليه السلام وأثنى على عمرو خيرًا

﴿ سرية ﴾

وفي رجب أرسل عليه السلام أبا عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة

فارس لغزو قبيلة جهينة التي تسكن ساحل البحر وزوّد عليه السلام هذا الجيش جراباً من التمر فساروا حتى اذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدوّ وقد فنى زادهم حتى أكلوا الخبط وهو ورق السمر يبلونه بالماء ويأكلونه الى أن تقرحت أشداقهم وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة لأن قيساً كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه فخاف أبو عبيدة أن لا يفي له أبوه بما استدان فقال قيس أترى سعداً يقضي ديون الناس ويطعم في المجاعة ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله ولما يئسوا من لقاء عدوّهم رجعوا الى المدينة فقال قيس بن سعد لأبيه كنت في الجيش فجاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نهيت

﴿ غزوة الفتح الاعظم ﴾

اذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه وأزال موانعه فقد كان عليه السلام يعلم أنه لا تذل العرب حتى تذل قريش ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوّف لفتحها ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التي أعطاها قريشاً في الحديبية وهو سيد من وفى ولكن اذا أراد الله أمراً هيأ

أسبابه فقد علمت أن قبيلة خزاعة دخلت في عهد رسول الله وقبيلة بكر دخلت في عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية كمنت ثارها بظهور الاسلام فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعي فقام هذا وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثارهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سرًّا بالعدة والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء السيد الامين أرسلوا منهم وفدًا برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه . أما قريش فانهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى اذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أم حبيبة بنته وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يا بنية أرغبت به عني أم رغبت بي عنه فقالت ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فقال لقد أصابك بعدي شر ثم خرج من عندها وأتى النبي في المسجد وعرض عليه ما جاء له فقال عليه السلام

هل كان من حدث قال لا فقال عليه السلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك فقام أبو سفيان ومشى الى أكابر المهاجرين من قريش علهم يساعدونه على مقصده فلم يجد منهم معيناً وكلهم قالوا جوارنا في جوار رسول الله فرجع الى قومه ولم يصنع شيئاً فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام فتنسك عند الاوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة فقال له يا رسول الله أو ليس بينك و بين قريش عهد قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفر عليه السلام الاعراب الذين حول المدينة وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حرباً بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها فدعا مولاه جل ذكره وقال (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها) فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدرًا وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع جارية لتوصله الى قريش على جعل فأعلم الله رسوله ذلك فأرسل في أثرها علياً والزبير والمقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقوا

حتى أتوا الروضة فوجدوا بها المرأة فقالوا لها أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقالوا لتخرجنّ الكتاب أو لنلقينّ الثياب فأخرجته من عقاصها فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام يا حاطب ما هذا قال يا رسول الله لا تعجل عليّ اني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الاسلام فقال عليه السلام أما انه قد صدقكم فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال انه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم وفي ذلك أنزل الله سورة الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ولما وصل الابواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق

عبيدة بن الحارث شهيد بدر وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة شقيق زوجه أم سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما شديد الفرح وقال (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) ولما وصل عليه السلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضاً وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بأهله وعياله فأمره أن يعود معه الى مكة ويرسل عياله الى المدينة . ولما وصل عليه السلام مر الظهران أمر بايقاد عشرة آلاف نار وكان قريش قد بلغهم أن محمدًا زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فاذا هم بنيران كأنها نيران عرفة فقال أبو سفيان ما هذه لكأنها نيران عرفة فقال بديل بن ورقاء نيران بني عمرو فقال أبو سفيان عمرو أقل من ذلك فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر الى المسلمين فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان وهو يسأل عنها ويقول مالي ولها حتى اذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة فقال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة فقال أبو سفيان

يا عباس حبذا يوم الذمار ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد فقال عليه السلام كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون(١) وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدي(٢) ودخل هو من أعلاها من كداء ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن وهذه أعظم منة له واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الأذى فأهدر دمهم وان تعلقوا بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي أسلم وكتب لرسول الله الوحي ثم ارتد وافترى الكذب على الأمين المأمون فكان يقول ان محمدًا كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم فيقول كل جيد ومنهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وهبار بن الأسود والحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية وكعب بن زهير ووحشي قاتل حمزة وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقليل غيرهم ونهى عن

---

(١) جبل بمعلاة مكة (٢) كدي كفوى جبل مسفلة مكة على طريق اليمن وكداء كسحاب جبل بأعلى مكة

قتل واحد سوى هؤلاء إلا من قاتل (فأما) جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صده فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين وقتل من جيشه اثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة (وأما) جيش رسول الله صلي الله عليه وسلم فلم يصادف مانعاً وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تمس الرحل وأسامة بن زيد رديفه وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل الى الحجون موضع رايته وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلاً ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت وطاف سبعاً على راحلته واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة اذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً فجعل عليه السلام يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل وما يبدئ الباطل وما يعيد ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم في أيديهما الأزلام فقال عليه السلام قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب الا قليلاً ويوشك أن نذكر للقارئ اقتفاء آثارها ومحو عبادتها بالكلية

﴿ العفو عند المقدرة ﴾

ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة وكبر في نواحيها ثم خرج الى مقام ابراهيم وصلى فيه ثم شرب من زمزم وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة اليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس فقال عليه السلام يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم فقال عليه السلام اذهبوا فأنتم الطلقاء ويرحم الله الامام البوصيري حيث قال

واذا كان القطع والوصل لا ... ه تساوى التقريب والاقصاء
وسواء عليه فيما أتاه ... من سره الملام والاطراء
ولو أن انتقامه لهوى النف ... س لدامت قطيعة وجفاء
قام لله في الأمور فأرضى الا ... ه منه تبيان ووفاء
فعله كله جميل وهل ينض ... ح الا بما حواه الاناء

ثم خطب عليه السلام خطبة أبان فيها كثيرًا من الاحكام الاسلامية منها أن لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها والبينة على من ادّعى واليمين على

من أنكر ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم ولا صلاة بعد الصبح والعصر ولا يصام يوم الأضحى و يوم الفطر ثم قال يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليه وتعظمها بالآباء والناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام وممن أسلم في هذا اليوم معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة والد الصديق وقد فرح الرسول كثيرًا باسلامه وجاءه رجل يرتعد خوفاً فقال له عليه السلام (هوّن عليك فاني لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب فقتل ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم فعبد الله بن سعد بن أبي سرح لجأ الى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان وطلب منه أن يستأمن له رسول الله فغيبه عثمان حتى هدأ الناس ثم أتى به النبي وقال يا رسول الله قد أمنته فبايعه فأعرض عنه عليه السلام مرارًا ثم بايعه فلما خرج عثمان وعبد الله قال عليه السلام أعرضت عنه ليقوم اليه أحدكم فيضرب عنقه فقالوا هلا أشرت الينا فقال (لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) (وأما)

عكرمة بن أبي جهل فهرب فخرجت وراءه زوجه و بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت قد أسلمت قبل الفتح وقد أخذت له أماناً من رسول الله فلحقته وقد أراد أن يركب البحر فقالت جئتك من عند أبرّ الناس وخيرهم لا تهلك نفسك واني قد استأمنته لك فرجع ولما رآه عليه السلام وثب قائماً فرحاً به وقال مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً ثم أسلم رضي الله عنه وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إياها فاستغفر له وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الاسلام (وأما) هبار بن الأسود فهرب واختفى حتى اذا كان رسول الله بالجِعرّانة (١) جاءه مسلماً وقال يا رسول الله هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل فقال عليه السلام قد عفوت عنك (وأما) الحارث ابن هشام وزهير بن أبي أمية المخزومى فأجارتهما أم هانئ بنت أبي طالب فأجاز عليه السلام جوارها ولما قابل رسول الله الحارث بن هشام مسلماً قال له الحمد لله الذي هداك ما كان مثلك يجهل الاسلام وقد كان بعد ذلك من فضلاء الصحابة (وأما) صفوان بن أمية فاختفى وأراد

(١) موضع بين مكة والطائف و بعضهم يضبطه بسكون العين وفتح الراء مخففة

أن يذهب ويلقى نفسه في البحر فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي وقال يا نبي الله ان صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه فانك قد أمنت الأحمر والأسود فقال عليه السلام أدرك ابن عمك فهو آمن فقال أعطني علامة فأعطاه عمامته فأخذها عمير حتى اذا لقى صفوان قال له فداك أبي وأمي جئتك من عند أفضل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك قال صفوان اني أخافه على نفسي قال هو أحلم من ذلك وأكرم وأراه العمامة علامة الأمان فرجع الى رسول الله وقال له ان هذا يزعم انك أمنتني قال صدق قال أمهلني بالخيار شهرين قال أربعة أشهر ثم أسلم رضي الله عنه وحسن اسلامه (وأما) هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت وجاءت الى رسول الله فرحب بها وقالت له يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب اليّ أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب اليّ أن يعزوا من أهل خبائك

﴿ وفود كعب بن زهير ﴾

(وأما) كعب بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيرًا جاء المدينة بعد أن قدمها رسول الله من مكة فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك اني عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

(وقال فيها مادحاً)

ان الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بردته (وأما) وحشي قاتل حمزة فكذلك أسلم وحسن اسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام وقد جاءه ابنا أبي لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه السلام

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو فاستأمن له ابنه عبد الله فأمنه عليه السلام وقال ان سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الاسلام فلما بلغت هذه المقالة سهيلاً قال كان والله برّاً صغيراً برّاً كبيراً ثم أسلم بعد ذلك

﴿ بيعة النساء ﴾

هذا ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء وكنّ يبايعن على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصين الرسول في معروف (ثم)

أمر عليه السلام بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة وهذا بدء ظهور الاسلام على ظهر البيت الكريم فلا عجب ان اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم

وأقام عليه السلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة وولى عليها عتاب بن أسيد وجعل رزقه كل يوم درهماً فكان عتاب رضي الله عنه يقول لا أشبع الله بطناً جاع على درهم كل يوم

﴿ هدم العزى ﴾

(وفي الخامس) من مقامه عليه السلام بمكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العزى وهي أكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نخلة فتوجه اليها خالد وهدمها

﴿ هدم سواع ﴾

(وأرسل عليه السلام) عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب اليه وهدمه

﴿ هدم مناة ﴾

(وبعث) سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم مناة وهي صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على البحر يهبط منه الى قديد فتوجهوا اليها وهدموها

﴿ غزوة حنين ﴾

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان دانت للاسلام جموع العرب ودخلوا فيه أفواجاً أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركتهما حمية الجاهلية واجتمع الأشراف منهم للشورى وقالوا قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا فأجمعوا أمرهم على ذلك وولوا رياستهم مالك بن عوف النصري فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر الذين كان رسول الله مسترضعاً فيهم وكان في القوم دريد بن الصمة المشهور باصالة الرأي وشدة البأس في الحرب ولتقدم سنه لم يكن له في هذه الحرب الا الرأي ثم ان مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم فلما علم بذلك دريد سأل مالكاً عن السبب فقال سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه فقال دريد وهل يرد المنهزم شيء ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك فلم يقبل مالك مشورته وجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة ووراءهم الابل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفرّ أحد من المقاتلين (أما) رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير اليهم وخرج معه اثنا عشر

ألف غاز منهم ألفان من أهل مكة والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة وخرج أهل مكة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم وخرج في الجيش ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل ابن عمرو ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب ولواء الخزرج للحباب ابن المنذر ولواء الأوس لأسيد بن حضير وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى ثم ركب عليه السلام بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر هذا وقد أعجب المسلمون بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً فان مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو فخرج لهم كمين كان مستترًا في شعاب الوادي ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد فلووا أعنة خيلهم متقهقرين ولما وصلوا الى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته في ميدان القتال وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ومعتب ابن أبي لهب وكان العباس آخذاً بلجام البغلة وأبو سفيان آخذاً بالركاب وكان عليه السلام ينادي اليّ أيها الناس ولا يلوي عليه أحد وضاقت بالمنهزمين الارض بما رحبت أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالاسلام والذين لم ينزعوا عنهم ربقة الشرك فمنهم من فرح ومنهم من ساءه هذا

الادبار فقال أبو سفيان بن حرب لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وقال أخ لصفوان بن أمية الآن بطل السحر فقال له صفوان وهو على شركه اسكت فض الله فاك والله لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن ومر عليه رجل من قريش وهو يقول أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبدًا فغضب صفوان وقال ويلك أتبشرني بظهور الاعراب وقال عكرمة بن أبي جهل لذاك الرجل كونهم لا يجبرونها أبدًا ليس بيدك الأمر بيد الله ليس الى محمد منه شيء ان أديل عليه اليوم فان العاقبة له غدًا فقال سهيل بن عمرو الله ان عهدك بخلافه لحديث فقال له يا أبا يزيد انا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة تعبد حجرًا لا يضر ولا ينفع (وبلغت) هزيمة بعض الفارين مكة كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول أنا النبيُّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب ثم قال للعباس وكان جهوري الصوت ناد بالأنصار يا عباس فنادى يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان فأسمع من في الوادي وصار الأنصار يقولون لبيك لبيك ويريد كل واحد منهم أن يلوي عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الاعراب المنهزمين فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه وينزل عن بعيره ويخلي سبيله ويؤم الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم يروها فكرّ المسلمون

على عدوهم يدًا واحدة فانتكث فتل المشركين وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيرًا من المحاربين وهرب من هرب وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين

(هذا) والذي حصل في هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب فان هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين واعراب وحديثي عهد باسلام وهؤلاء سيان عندهم نصر الاسلام وخذلانه ولذلك بادروا لأول صدمة الى الهزيمة وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله فلا ينبغي أن يكون في الجيش الا من يقاتل خالصاً مخلصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه فلا تميل نفسه الى الفرار خشية ما أعده الله للفارين من أليم العقاب

ثم أمر عليه السلام بجمع السبي والغنائم وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة فجمع ذلك كله بالجعرانة (أما) المشركون فتفرقوا ثلاث فرق فرقة لحقت بالطائف وفرقة لحقت بنخلة وفرقة عسكرت بأوطاس (١)

---

(١) واد بديار هوازن

(سرية)

فأرسل عليه السلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعري في جماعة منهم أبو موسى الأشعري فسار اليهم و بددهم وظفر بما بقي معهم من الغنائم وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة وخلف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافرًا منصورًا

(غزوة الطائف)

(وسار) عليه السلام بمن معه الى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوازن وجعل على مقدمته خالد بن الوليد ومر عليه السلام بحصن لعوف بن مالك النصري فأمر بهدمه ومر ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه فأرسل اليه أن اخرج والا حرقنا عليك بستانك فامتنع الرجل فأمر عليه السلام بحرقه ولما وصل المسلمون الى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به وأدخلوا معهم قوت سنتهم فعسكر المسلمون قريب الحصن فرماهم المشركون بالنبل رميًا شديدًا حتى أصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبد الله بن أبي بكر وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه ومنهم أبو سفيان بن حرب فقئت عينه وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين ولما رأى رسول الله أن العدو متمكن من رميهم ارتفع محل مسجد الطائف الآن

وضرب لام سلمة وزينب قبتان هناك واستمر الحصار ثمانية عشر يوماً كان فيها ينادي خالد بن الوليد بالبراز فلم يجبه أحد وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف لا ينزل اليك منا أحد ولكن نقيم في حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين فان أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا اليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا فأمر عليه السلام بأن ينصب عليهم المنجنيق فنصب ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين (١) لينقبوا الحصن فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار حتى أرجعوهم فأمر عليه السلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم فقال أدعها لله وللرحم ثم أمر من ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن فخرج اليه بضعة عشر رجلاً (ولما) رأى عليه السلام أن تمنع ثقيف شديد وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب أو المقام فقال يا رسول الله ثعلب في جحر ان أقمت أخذته وان تركته لم يضرك فأمر عليه السلام بالرحيل وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال (اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين)

---

(١) الدبابة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها

﴿ تقسيم السبى ﴾

ثم رجع عليه السلام الى الجعرانة حيث ترك السبى فأحصاه وخمسه وأعطى منه شيئاً كثيرًا لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك وأعطى أناساً لم يسلموا ليحببهم في الاسلام ومن الأولين أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب ومائة من الابل وكذلك ابناه معاوية ويزيد فقال له بأبي أنت وأمى لأنت كريم في السلم والحرب ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه مثلها ثم استزاده فأعطاه مثلها وقال يا حكيم (ان هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى) فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها ثم قال والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه . وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الابل وكذلك الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءًا نعماً وشاء كان رآه يرمقه فقال له هل يعجبك هذا قال نعم قال هو لك فقال صفوان ما طابت بمثل هذا نفس أحد وكان ذلك سبب اسلامه . وكان عليه السلام يقصد من

هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم وهـذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم وقد عاد ذلك بفائدة عظمى فان كثيرين ممن أعطوا في هـذا اليوم ولم يكونوا أشربوا في قلوبهم حب الاسلام صاروا بعد من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعاً كصفوان بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان والحارث بن هشام وغيرهم (ثم) أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقى من الغنائم وقسمه على الغزاة بعد ان اجتمع اليه الاعراب وصاروا يقولون له اقسم علينا حتى ألجؤوه الى شجرة فتعلق رداؤه فقال (ردوا ردائي أيها الناس فوالله إن كان لي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً) ثم قام الى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال (أيها الناس والله ما لي من غنيمتكم ولا هـذه الوبرة الا الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخيط فان الغلول (١) يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة) فصار كل من أخذ شيئاً من الغنائم خلسة يرده ولو كان زهيداً ثم شرع يقسم فأصاب الراجل أربعة من الابل وأربعون شاة والفارس ثلاثة أمثال ذلك فقال رجل من المنافقين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب عليه السلام حتى احمرّ وجهه وقال (ويحك من يعدل اذا لم أعدل) فلم يؤده غضبه أن ينتقم لنفسه

(١) الاختلاس من الغنيمة

حاشاه عليه السلام من ذلك بل لم يزد على أن نصح وحذر وقال له عمر وخالد بن الوليد دعنا يا رسول الله نضرب عنقه فقال لا لعله أن يكون يصلي فقال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال عليه السلام اني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم (ولما) أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب وترك الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا ان هـذا لهو العجب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم فلما اجتمعوا قال يا معشر الأنصار (ما مقالة بلغتني عنكم ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وعالة (١) فأغناكم الله بي وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي ان قريشاً حديثو عهـد بكفر ومصيبة واني أردت أن أجبرهم وأتألفهم أغضبتم يا معشر الأنصار في أنفسكم لشيء قليـل من الدنيا ألفت به قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم الثابت الذي لا يزلزل ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحلكم فوالذي نفس محمد بيـده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار)

---

(١) جمع عائل وهو الفقير

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظاً ثم انصرف عليه السلام وتفرقوا

﴿ وفود هوازن ﴾

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه عليه السلام وفد هوازن برأسهم زهير ابن صرد وقالوا يا رسول الله ان فيمن أصبتم الأمهات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام ونرغب الى الله واليك يا رسول الله . وقال زهير ان في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك ثم قال أبياتاً يستعطفه بها

امنن علينا رسول الله في كرم ... فانك المرء نرجوه ونتنظرُ
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك مملوءة من مخضها الدررُ
انا لنشكر للنعماء ان كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخرُ
انا نؤمل عفوًا منك نلبسه ... هدى البرية أن تعفو وتنتصرُ
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك ان العفو مشتهرُ

فقال عليه السلام ان أحب الحديث اليّ أصدقه فاختاروا احدى الطائفتين إما السبي واما المال وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير فقال عليه السلام أما مالي

ولبني عبد المطلب فهو لكم فاذا أنا صليت الظهر فقوموا وقولوا نحن نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله بعد أن تظهروا اسلامكم وتقولوا نحن اخوانكم في الدين ففعلوا فقال عليه السلام لأصحابه (أما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين واني قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل فقال المهاجرون والأنصار ما كان لنا فهو لرسول الله وامتنع من ذلك جماعة من الأعراب كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس فأخذه الرسول منهم قرضاً وأمر عليه السلام بأن تحبس عائلة مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أم عبد الله ابن أبي أمية فقال له الوفد أولئك ساداتنا فقال عليه السلام انما أريد بهم الخير ثم سأل عن مالك فقالوا هرب مع ثقيف فقال أخبروه أنه ان جاءني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل فلما بلغ ذلك مالكاً نزل من الحصن خفية حتى أتى رسول الله بالجعرانة فأسلم وأحرز ماله وأهله واستعمله عليه السلام على من أسلم من هوازن

﴿ عمرة الجعرانة ﴾

(ثم) ان الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمر فأحرم من الجعرانة

ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته وكانت إقامته بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ثم أمر عليه السلام بالرحيل فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة

وغزوة حنين هي التي فرق الله بها جموع الشرك وأدال دولته وأفقد سراة أهله فان هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكنه الحرب إلا ساقته ولم تترك لها بعيرًا ولا شاةً الا جاءت به معها فأراد الله اعزاز الاسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم فانكسرت حدة المشركين ولم يبق فيهم من يمانع أو يدافع ولذلك يمكننا أن نقول ان انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب فلم يبق فيهم الا فئات قليلة يسوقهم الطيش الى شهر السلاح ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة

﴿ سرية ﴾

ولما رجع عليه السلام الى المدينة أرسل قيس بن سعد في أربعمائة ليدعو صُداء (قبيلة تسكن اليمن) الى الاسلام فجاء الى رسول الله رجل منهم فقال يا رسول الله اني جئتك وافدًا عمن ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي فأمر عليه السلام برد الجيش

﴿ وفود صداء ﴾

وخرج الرجل الى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم فنزلوا ضيوفاً

على سعد بن عبادة ثم بايعوا رسول الله على الاسلام وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ولما رجعوا فشا فيهم الاسلام وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع

﴿ سرية ﴾

ثم أرسل عليه السلام بشر بن سفيان العدوي الى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقات أموالهم فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فرض عليهم فلما علم بذلك رسول الله أرسل اليهم عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الاعراب فجاءهم وحاربهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً واحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً وتوجه بالكل الى المدينة فأمر عليه السلام بجعلهم في دار رملة بنت الحارث

﴿ وفود تميم ﴾

فجاء في أثرهم وفد تميم فيه عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم فجلسوا ينتظرون الرسول فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء الحجرات بصوت جاف يا محمد اخرج الينا نفاخرك فان مدحنا زين وان ذمنا شين فخرج اليهم عليه السلام وقد تأذى من صياحهم وفيهم نزل في أوائل سورة الحجرات (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرًا لهم

والله غفور رحيم) وكان الوقت وقت الظهر فأذن بلال ودخل النبي للصلاة فتعلقوا به يقولون نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك فقال لهم عليه السلام (ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا) ثم صلى الظهر واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر فقال انهُ لمطاع في أنديته سيد في عشيرته فقال الزبرقان حسدني يا رسول الله لشرفي وقد علم أفضل مما قال فقال عمرو انه لزمر المروءة ضيق العطن لئيم الخال فرؤى الغضب في وجه رسول الله لاختلاف قولي عمرو فقال يا رسول الله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الثانية رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أسوأ ما علمت فقال عليه السلام (ان من البيان لسحرًا) ثم أسلم القوم فردّ النبي عليه السلام عليهم أسراهم وأحسن جائزتهم وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن و يتفقهون في الدين

﴿ سرية ﴾

ثم بعث عليه السلام الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ صدقات بني المصطلق فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه و بينهم من العداوة في الجاهلية فرجع مسرعاً الى

المدينة وأخبر الرسول أن القوم ارتدوا ومنعوا الزكاة فأرسل اليهم خالد ابن الوليد لاكتشاف الخبر فسار اليهم في عسكره خفية حتى اذا كان بناديهم سمع مؤذنهم يؤذن بالصبح فأتاهم خالد فلم ير منهم الا طاعة فرجع وأخبر الرسول فأرسل عليه السلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات وفى الوليد نزل في أوائل الحجرات (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)

﴿ سرية ﴾

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً من الحبشة رآهم أهل جدة في مراكبهم يريدون الاغارة عليها فأرسل لهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة فذهب حتى وصل جدة ونزل في المراكب ليدركهم وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ولم يلق المسلمون كيداً فرجع علقمة بمن معه ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي وكان فيه دعابة فأوقد لهم في الطريق ناراً وقال لهم ألستم مأمورين بطاعتي قالوا نعم قال عزمت عليكم الا ما تواثبتم في هذه النار فقال بعضهم ما أسلمنا الا فراراً من النار وهم بذلك بعضهم فمنعهم عبد الله وقال كنت مازحاً فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)

﴿ السنة التاسعة ﴾

(سرية)

في ربيع الأول أرسل عليه السلام علي بن أبي طالب في خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطيئ) فسار اليه وهدمه وأحرقه ولما حارب عباده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم وكان فيه سفانة بنت حاتم طيئ ولما رجع علي الى المدينة طلبت سفانة من رسول الله أن يمنّ عليها فأجابها لأنه كان من سننه أن يكرم الكرام فدعت له وكان من دعائها (شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر وأصاب الله بمعروفك مواضعه ولا جعل لك الى لئيم حاجة ولا سلب نعمة كريم الا وجعلك سبباً لردها عليه) وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان فر الى الشام عند ما رأى الرايات الاسلامية قاصدة بلاده . وكان من حديث مجيئه أن أخته توجهت اليه بالشام وأخبرته بما عوملت به من الكرم فقال لها ما ترين في أمر هذا الرجل فقالت أرى أن تلحق به سريعاً فإن يكن نبياً فللسابق اليه فضل وان يكن ملكاً فأنت أنت فقال والله هذا هو الرأي

﴿ وفود عدي بن حاتم ﴾

فخرج حتى جاء المدينة ولقي رسول الله فقال عليه السلام من الرجل قال عدي بن حاتم فأخذه الى بيته وبينما هما يمشيان إذ لقيت رسول الله امرأة عجوز ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها فقال عدي والله ما هو بملك ثم مضى رسول الله حتى اذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوّة ليفاً فقدمها الى عديّ وقال اجلس على هذه فقال بل أنت تجلس عليها فامتنع عليه السلام وأعطاها له وجلس هو على الأرض ثم قال يا عديّ أسلم تسلم قالها ثلاثاً فقال عدي اني على دين (وكان نصرانياً) فقال له عليه السلام أنا أعلم بدينك منك فقال عدي أأنت أعلم بديني مني قال نعم ثم عدد له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليست من دين المسيح في شيء كأخذه المرباع وهو ربع الغنائم ثم قال يا عدي انما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى تقول انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قدرة لهم وقد رمتهم العرب مع حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم أتعرف الحيرة قال لم أرها وقد سمعت بها قال فوالله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد

ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم فأسلم عدي رضى الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك

﴿ غزوة تبوك ﴾

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده وكان ذلك في زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر حين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم فأمر عليه السلام بالتجهز وكان قلما يخرج في غزوة الا ورّى بغيرها ليعمي الأخبار على العدو الا في هذه الغزوة فانه أخبر بمقصده لبعد الشقة وكثرة العدوّ ليأخذ الناس عدتهم لذلك وبعث الى مكة وقبائل الاعراب يستنفرهم لذلك وحث الموسرين على تجهيز المعسرين فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً فقال عليه السلام اللهم ارض عن عثمان فاني راض عنه وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم فقال عليه السلام هل أبقيت لأهلك شيئاً فقال أبقيت لهم الله ورسوله وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية وجاء العباس وطلحة بمال كثير وتصدق عاصم بن عديّ بسبعين وسقاً من تمر وأرسلت النساء بكل

ما يقدرن عليه من حليهن وجاءه عليه السلام سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يطلبون اليه أن يحملهم فقال لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون فجهز عثمان ثلاثة منهم وجهز العباس اثنين وجهز يامين بن عمرو اثنين ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون ألفاً وولى على المدينة محمد بن مسلمة وعلى أهله علي بن أبي طالب وتخلف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله ابن أبيّ وقال يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب والله لكأني أنظر الى أصحابه مقرنين في الحبال واجتمع جماعة منهم فقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الارجاف فبلغه ذلك فأرسل اليهم عمار بن ياسر يسألهم عما قالوا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب وجاء اليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج فقالوا يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنا لأنا لا نأمن نساء بني الأصفر وجاء اليه المعذورون من الاعراب وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلة ليؤذن لهم فأذن لهم وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم وقد عتب الله عليه في ذلك الاذن بقوله في سورة براءة (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) ثم قال في حقهم (انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) ثم كذبهم

الله في عذرهم فقال (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم قال جل ذكره (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين) وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون في إسلامهم منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وأبو خيثمة ولما خلف عليه السلام علياً قال المنافقون قد استثقله فتركه فأسرع الى رسول الله وشكا له ما سمع فقال عليه السلام (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى) ثم سار عليه السلام بالجيش وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق وفي إعطاء اللواء لأبي بكر في آخر غزوة للرسول وتخليف عليّ على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القاريء وفرق عليه السلام الرايات فأعطى الزبير راية المهاجرين وأسيد بن حضير راية الأوس والحباب بن المنذر راية الخزرج (ولما) مر الجيش بالحجر وهي ديار ثمود قال عليه السلام لأصحابه (لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون) ليشعر قلوبهم رهبة الله وكان مستعملاً على حرس الجيش عباد بن بشر وكان أبو بكر يصلي بالجيش ولما وصلوا الى تبوك وكانت أرضاً لا عمارة فيها قال الرسول لمعاذ بن جبل (يوشك ان طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملئ بساتين) وقد كان ولما استراح الجيش لحقه

أبو خيثمة وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشتين لهما فى بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً وكان يوماً شديد الحر فلما نظر ذلك قال يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء ما هذا بالنصف ثم قال والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيأ لي زادا ففعلتا ثم ركب بعيره وأخذ سيفه ورمحه وخرج يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك

﴿ وفود صاحب أيلة ﴾

هذا ولم ير عليه السلام بتبوك جيشاً كما كان قد سمع فأقام هناك أياماً جاءه في أثنائها يوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء (١) وأهل أذرح (٢) وأهل ميناء فصالح يوحنا رسول الله على اعطاء الجزية ولم يسلم وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته

﴿ كتاب صاحب أيلة ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث

(١) قرية في جنوب الشام (٢) مدينة تلقاء السراة

منهم حدثاً فانه لا يحوز ماله دون نفسه وانه لطيبة لمن أخذه من الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر)

﴿ كتاب أهل أذرح وجرباء ﴾

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هـذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء انهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافيـة طيبة والله كفيل بالنصح والاحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارهم (ثم ان) الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك الى ما هو أبعد منها من ديار الشام فقال له عمر ان كنت أمرت بالسير فسر فقال عليه السلام لو كنت أمرت بالسير لم أستشر فقال يا رسول الله ان للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسـلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك فلو رجعنا في هـذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرًا فتبع عليه السلام مشورته وأمر بالقفول فرجع الجيش الى المدينة

﴿ مسجد الضرار ﴾

ولما كان على مقربة منها بلغه خبر مسجد الضرار وهو مسجد أسسه جماعة من المنافقين معارضة لمسجد قباء ليفرقوا جماعة المسلمين وجاء جماعة منهم الى الرسول طالبين منه أن يصلي لهم فيه فسألهم عن

سبب بنائه فحلفوا بالله ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون فأمر عليه السلام جماعة من أصحابه أن ينطلقوا اليه ويهدموه ففعلوا (هذا) ولما استقر عليه السلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً فقبل منهم عليه السلام علانيتهم ووكل ضمائرهم الى الله واستغفر لهم

﴿ حديث الثلاثة الذين خلفوا ﴾

وجاءه كعب بن مالك الخزرجي ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية الأوسيان مقرين بذنوبهم فلما دخل عليه كعب تبسم تبسم الغضب وقال ما خلفك قال يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أوتيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخط عليّ فيه ولئن حدثتك حديث صدق تغضب عليّ فيه اني لأرجو فيه عفو الله والله ما كان لي من عذر فقال عليه السلام أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك وقال صاحباه مثل قوله فقال لهما عليه السلام كما قال لكعب ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم واستأذنت زوج هلال بن أمية في خدمة زوجها لأنه شيخ ضائع ليس له خادم فأذن لها ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم فأرسل لهم عليه السلام من

يبشرهم بهذه النعمة الكبرى فتلقاهم الناس أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً فقال أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك فقال من عندك يا رسول الله أم من عند الله قال بل من عند الله فقال كعب يا رسول الله ان من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ولرسوله فقال عليه السلام أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ثم قرأ عليه السلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحباه في سورة براءة (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم)

﴿ وفود ثقيف ﴾

وعقب مقدمه عليه السلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف وكان من خبرهم انه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم تبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل الى المدينة فأسلم وسأله أن يرجع الى قومه ويدعوهم الى الاسلام فقال له انهم قاتلوك فقال يا رسول الله أنا أحب اليهم من أبكارهم فخرج الى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رموه بالنبل فقتلوه وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه

لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلمه وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى وقال لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين الى المدينة ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس اذا صلوا وكانوا يغدون الى رسول الله كل يوم ويخلفون في رحالهم أصغرهم سناً عثمان بن أبي العاص فكان اذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن واذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيرًا من القرآن وهو يكتم ذلك عن أصحابه ثم أسلم القوم وطلبوا أن يعين لهم من يؤمهم فأمر عثمان ابن أبي العاص لما رآه من حرصه على الاسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين

﴿ كتاب أهل الطائف ﴾

ثم كتب لهم كتاباً من جملته (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله الى المؤمنين ان عضاه وجّ وصيده حرام لا يعضد شجره ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يؤجل هدم صنمهم شهرًا حتى يدخل الاسلام قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه فرضي بذلك عليه السلام ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم أنا أعلمكم بثقيف اكتموا عنهم اسلامكم

وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمدًا طلب أمورًا عظيمة أبيناها عليه سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنا وشرب الخمر والربا فلما حلوا بلادهم جاءهم ثقيف فقال الوفد جئنا رجلاً فظًا غليظًا قد ظهر بالسيف ودان الناس له فعرض علينا أمورًا شديدة وذكروا ما تقدم فقالوا والله لا نطيعه أبدًا فقالوا لهم أصلحوا سلاحكم ورمّوا حصونكم واستعدوا للقتال فأجابوا واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم فقالوا والله ما لنا بحربه من طاقة ارجعوا اليه وأعطوه ما سأل فقال الوفد قد قاضيناه وأسلمنا فقالوا لم كتمتم علينا ذلك قالوا حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا

﴿ هدم اللات ﴾

ولما بلغ رسول الله إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم اللات صنم ثقيف بالطائف فتوجهوا وهدموه حتى سووه بالارض

﴿ حج أبي بكر ﴾

وفي أخريات ذي القعدة أرسل عليه السلام أبا بكر ليحج بالناس فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدي عشرون بدنة أهداها رسول الله وساق أبو بكر خمس بدنات ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة فأرسل بها عليًا ليبلغها الناس في يوم الحج الأكبر

وقال لا يبلغ عني الا رجل مني فلحق أبا بكر في الطريق فقال الصديق هل استعملك رسول الله على الحج قال لا ولكن بعثني أقرأ أو أتلو براءة على الناس فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم عليّ ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفوا عهودهم وامهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كيف شاؤا واتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم الى مدتهم ثم نادى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما

﴿ وفاة ابن أبيّ ﴾

وفي ذي القعدة مات عبد الله بن أبيّ وقد صلى عليه رسول الله صلاة لم يطل مثلها وشيع جنازته حتى وقف على قبره وانما فعل ذلك تطييباً لقلب ولده عبد الله بن عبد الله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبد الله بن أبيّ فيهم وقد نزع ربقة النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريم صلى الله عليه وسلم وقد نهى الله رسوله بعد ذلك عن الصلاة على المنافقين فقال جل شأنه في سورة براءة (ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره)

﴿ وفاة أم كلثوم ﴾

وفي هذه السنة توفيت أم كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما

﴿ السنة العاشرة ﴾

(سرية)

في ربيع الآخر أرسل عليه السلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد المدان بنجران من أرض اليمن وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ثلاث مرات فان أبوا قاتلهم فلما قدم اليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون الى الاسلام ويقولون أسلموا تسلموا فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً فأقام خالد بينهم يعلمهم الاسلام والقرآن وكتب الى رسول الله بذلك فأرسل اليه أن يقدم بوفدهم ففعل وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم قال صدقتم وأمر عليهم زيد بن حصين

﴿ سرية ﴾

(وفي) رمضان أرسل عليه السلام علياً في جمع الى بني مذحج (قبيلة يمانية) وعممه بيده وقال (سر حتى تنزل بساحتهم فادعهم الى قول لا اله الا الله فان قالوا نعم فمرهم بالصلاة ولا تبغ منهم غير ذلك ولان يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك) فلما انتهى اليهم لقي جموعهم فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل فصف علي أصحابه وأمرهم بالقتال فقاتلوا حتى هزموا

عدوّهم فكف عن طلبهم قليلاً ثم لحقهم ودعاهم الى الاسلام فأجابوا وبايعه رؤساؤهم وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ففعل ثم رجع الى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع

﴿ بعث العمال على اليمن ﴾

ثم بعث عليه السلام الى اليمن عمالاً من قبله فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن (١) و بعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى ووصاهما عليه السلام بقوله (يسرا ولا تعسرا و بشرا ولا تنفرا) وقال لمعاذ (انك ستأتي قوماً أهل كتاب فاذا جئتهم فادعهم الى أن يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدًا رسول الله فان أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة فان أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوا لك بذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها و بين الله حجاب) وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله أما أبو موسى فقدم على الرسول عليه السلام في حجة الوداع

(١) جبل بمعلاة مكة

﴿ حجة الوداع ﴾

وفي السنة العاشرة حج عليه السلام بالناس حجة ودّع فيها المسلمين ولم يحج غيرها وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة وولى على المدينة أبا دُجانة الأنصاري وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبى فقال (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) ولم يزل عليه السلام سائرًا حتى دخل مكة ضحى من الثنية العليا وهي ثنية كداء ولما رأى البيت قال اللهم زده تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبرًّا ثم طاف بالبيت سبعاً واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته وكان اذا صعد الصفا يقول لا إله الا الله الله أكبر لا اله الا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وفي الثامن من ذي الحجة توجه الى منى فبات بها

﴿ خطبة الوداع ﴾

وفي التاسع منه توجه الى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة التي بين فيها الدين كله أسه وفرعه وهاك نصها (الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا

من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادىَ له وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير (أما بعد) أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامى هذا في موقفي هذا (أيها الناس) ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها وان ربا الجاهلية موضوع وان أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس ابن عبد المطلب وان دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم عامر ابن ربيعة بن الحارث وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية (والعمد) قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية (أيها الناس) ان الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم (أيها الناس) ان النسيء (١) زيادة في الكفر يضل به

(١) كانت العرب تحرم أربعة أشهر ثلاثة متواليات وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم الى الحرب والقتال فأحلوا المحرم وحرموا صفرًا من العام المقبل فهذا هو الذي عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى في عقيدتهم

الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم اشهد (أيها الناس) ان لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهنّ حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن (١) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا ألا هل بلغت اللهم اشهد (أيها الناس) انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد (أيها الناس) ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله

(١) العضل هو الحبس والتضييق

أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب (أيها الناس) ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله) وفي هذا اليوم امتنّ الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيدًا ويومًا سعيدًا يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى (ثم) انه عليه السلام أدى مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل الى المدينة ولما رآها كبر ثلاثًا وقال (لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده)

﴿ الوفود ﴾

في هذه السنة والتي قبلها كان وفود العرب الى رسول الله ليبايعوه على الاسلام وكانوا يقدمون أفواجًا ولما في أخبار هذه الوفود من

التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب أن يعرفها رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً وينير بصيرتك فنقول

﴿ وفود نجران ﴾

(ومن) الوفود وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير مختمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومسوح جاؤا بها هدية للنبي صلي الله عليه وسلم فلم يقبل البسط وقبل المسوح ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس ولما أتموا صلاتهم دعاهم عليه السلام للاسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قبلكم فقال عليه السلام يمنعكم من الاسلام ثلاث عبادتكم الصليب وأكلكم لحم الخنزير وزعمكم أن لله ولداً قالوا فمن مثل عيسى خلق من غير أب فأنزل الله في ذلك في سورة آل عمران (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وليظهر الله لهم أنهم في شك من أمرهم أنزل (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فدعاهم عليه السلام لذلك فامتنعوا ورضوا باعطاء الجزية وهي ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب مع كل حلة أوقية من ذهب ثم قالوا أرسل معنا أميناً فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة

﴿ وفود ضمام بن ثعلبة ﴾

(ومن) الوفود ضمام بن ثعلبة بينا رسول الله بين أصحابه متكئاً جاءه رجل من أهل البادية ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول فأناخ جمله في المسجد ثم قال أيكم ابن عبد المطلب فدلوه عليه فدنا منه وقال اني سائلك فمشدد عليك المسألة فلا تجد (١) عليّ في نفسك فقال سل ما بدا لك فقال أنشدك بالله آلله أرسلك الى الناس كلهم فقال نعم فقال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي خمس صلوات في اليوم والليلة قال اللهم نعم فقال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا قال اللهم نعم قال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرًا قال اللهم نعم قال أنشدك بالله آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع اليه سبيلا قال اللهم نعم قال فاني قد آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة ولما ولى قال عليه السلام فقه الرجل ثم ذهب ضمام الى قومه ودعاهم الى الاسلام وترك عبادة الأوثان فأسلموا كلهم

﴿ وفود عبد القيس ﴾

(ومن) الوفود عبد القيس وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين أصحابه يوماً فقال لهم سيطلع عليكم من هنا ركب هم خير أهل

(١) أي لا تغضب

المشرق لم يكرهوا على الاسلام قد أنضوا الركائب وأفنوا الزاد اللهم اغفر لعبد القيس فلما أتوا ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد وتبادروا الى رسول الله يسلمون عليه وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج وكان أصغرهم سناً فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما ثم جاء يمشي هوناً حتى سلم على رسول الله وكان رجلاً دميماً ففطن لنظر الرسول الى دمامته فقال يا رسول الله انه لا يستقي في مسوك (جلود) الرجال وانما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه فقال عليه السلام ان فيك خلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والاناة وقد قال عليه السلام لهذا الوفد (مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى) فقالوا يا رسول الله انا نأتيك من شقة بعيدة (١) وانه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر وانا لا نصل اليك الا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل فقال آمركم بالايمان بالله أتدرون ما الايمان بالله شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس وأنهاكم عن الدباء (٢) والحنتم (٣) والنقير (٤) والمزفت (٥) والمراد بذلك ما ينبذ في هذه

---

(١) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسي وهي ديار ربيعة وبينهم وبين الحجاز أرض نجد (٢) القرع (٣) هو جرار مدهونة بدهان أخضر (٤) هو أصل النخلة ينقر (٥) ما طلي بالزفت

الأواني فقال الأشج يا رسول الله ان أرضنا ثقيلة وخمة وانا اذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا فرخص لنا في مثل هذه وأشار الى يده فأومأ عليه السلام بكفيه وقال يا أشج ان رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه وفرج بين يديه و بسطها حتى اذا ثمل أحدكم من شرابه قام الى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف وانما خص عليه السلام نهيهم بما ذكر لكثرة الأشربة بينهم

﴿ وفود بني حنيفة ﴾

(ومن) الوفود بنو حنيفة وكان معهم مسيلمة الكذاب وكان مسيلمة يقول إن جعل لي الأمر من بعده اتبعته فأقبل عليه السلام ومعه قيس بن شماس وفي يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها واني لأراك الذي منه رأيت وكان عليه السلام قد رأى في منامه أن في يده سوارين من ذهب فأهمه شأنهما فأوحى الله أن انفخهما فنفخهما فطارا فأولهما عليه السلام كذابين يخرجان من بعده فكان مسيلمة أحدهما والثاني الأسود العنسي صاحب صنعاء وقد أسلم بنو حنيفة

﴿ وفود طيئ ﴾

(ومن) الوفود وفد طيئ وفيهم زيد الخيل رئيسهم وقد قال عليه

السلام في حقه ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل وسماه عليه السلام زيد الخير

﴿ وفود كندة ﴾

(ومنهم) وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس وكان وجيهاً مطاعاً في قومه ولما دخلوا على رسول الله خبؤا له شيئاً وقالوا أخبرنا عما خبأناه لك فقال سبحان الله انما يفعل ذلك بالكاهن وان الكاهن والتكهن في النار ثم قال ان الله بعثني بالحق وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقالوا أسمعنا منه فتلا عليه السلام (والصافات صفاً فالزاجرات زجرًا فالتاليات ذكرًا ان إلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) ثم سكت وسكن ودموعه تجري على لحيته فقالوا انا نراك تبكي أفمن مخافة من أرسلك تبكي قال ان خشيتي منه أبكتني بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف ان زغت عنه هلكت ثم تلا (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا) ثم قال لهم عليه السلام ألم تسلموا قالوا بلى قال مابال هذا الحرير في أعناقكم فعند ذلك شقوه وألقوه

﴿ وفود أزدشنوءة ﴾

(ومنهم) وفد ازدشنوءة ورئيسهم صرد بن عبد الله الازدي فأسلموا وأمره عليهم وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك

﴿ وفود رسول ملوك حمير ﴾

(ومنهم) وفد رسول ملوك حمير وهم الحارث بن عبد كلال والنعمان ومعافر وهمدان وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب اليهم النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ كتاب ملوك حمير ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى الحارث بن عبد كلال والى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان أما بعد فاني أحمد الله اليكم الذى لا اله الاهو أما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة أما بعد فان محمدًا النبي أرسل الى زرعة ذي يزن اذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك ابن مرة وأصحابهم وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي وان أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن الا راضيًا أما بعد فان محمدًا يشهد أن لا إله الا الله وانه عبده ورسوله ثم ان مالك

ابن مرة الرهاوي قد حدثني انك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيرًا ولا تخونوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم وان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته انما هي زكاة يزكي بها على فقراء المسلمين وابن السبيل وان مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيرًا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

﴿ وفود همدان ﴾

(ومنها) وفد همدان وفيهم مالك بن نمط وكان شاعرًا مجيدًا فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك عليهم مقطعات من الحبرات اليمنية والعمائم العدنية وقد أنشد مالك لرسول الله عليه السلام

حلفت برب الراقصات الى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عندذي العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد

وقد أمره عليه السلام على من أسلم من قومه وقد قال الرسول في حق همدان نعم الحيّ همدان ما أسرعها الى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم أوتاد

﴿ وفود تجيب ﴾

(ومنها) وفد تجيب قبيلة من كندة وفد على رسول الله ثلاثة

عشر رجلاً منهم معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم فسرّ بهم عليه السلام وأكرم مثواهم وقالوا يا رسول الله انا سقنا اليك حق الله في أموالنا فقال عليه السلام (ردوها فاقسموها على فقرائكم) فقالوا يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا قال أبو بكر يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا فقال عليه السلام ان الهدى بيد الله فمن أراد به خيرًا شرح صدره للايمان وجعلوا يسألونه عن القرآن فازداد عليه السلام رغبة فيهم ثم أرادوا الرجوع الى أهليهم فقيل لهم ما يعجلكم قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إياه وما رد علينا ثم جاؤا الى رسول الله فدعوه فأجازهم بأفضل ما كان يجيز به الوفود ثم قال لهم هل بقي منكم أحد قالوا غلام خلفناه في رحالنا وهو أحدثنا سناً قال فارسلوه الينا فأرسلوه فأقبل الغلام وقال يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي قال وما حاجتك قال تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي فقال عليه السلام اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه

﴿ وفود ثعلبة ﴾

(ومنها) وفد ثعلبة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرين بالاسلام فسلموا عليه وقالوا يا رسول الله انا رسل من خلفنا من قومنا

ونحن مقرون بالاسلام وقد قيل لنا انك تقول لا إسلام لمن لا هجرة له فقال عليه السلام (حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم) ثم قال لهم كيف بلادكم فقالوا مخصبون فقال الحمد لله ثم أقاموا في ضيافته أياماً وحين ارادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة

﴿ وفود بني سعد بن هذيم ﴾

(ومنها) وفد بني سعد بن هذيم من قضاعة قال النعمان منهم قدمت على رسول الله وافداً في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب والناس صنفان إما داخل في الاسلام راغب فيه وإما خائف السيف فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه فوجدنا رسول الله يصلي على جنازة في المسجد فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم وقلنا حتى يصلي رسول الله ونبايعه ثم انصرف رسول الله فنظر الينا فدعا بنا فقال ممن أنتم فقلنا من بني سعد ابن هذيم فقال أمسلمون أنتم قلنا نعم فقال هلا صليتم على أخيكم قلنا يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك فقال عليه السلام (أينما أسلمتم فأنتم مسلمون) قال فأسلمنا وبايعنا رسول الله بأيدينا ثم انصرفنا الى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا فبعث عليه السلام في طلبنا فأتى بنا اليه فتقدم صاحبنا فبايعه صلى الله عليه وسلم على الاسلام فقلنا

يا رسول الله انه أصغرنا وانه خادمنا فقال سيد القوم خادمهم بارك الله عليه قال النعمان فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له ثم أجازهم وانصرفوا

﴿ وفود بني فزارة ﴾

(ومنها) وفد بني فزارة وفد على رسول الله جماعة منهم مقرين بالاسلام وهم مسنتون فسألهم عليه السلام عن بلادهم فقال رجل منهم يا رسول الله أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وجاعت عيالنا فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا الى ربك وليشفع لنا ربك اليك فقال عليه السلام سبحان الله ويلك هذا أنا أشفع الى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا اليه لا اله الا هو العلي العظيم وسع كرسيه السموات والأرض فهي تئط (١) من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الحديث (أي من ثقل الحمل) ثم صعد عليه السلام المنبر ودعا الله عز وجل حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة

﴿ وفود بني أسد ﴾

(ومنها) وفد بني أسد وفيهم ضرار بن الازور وطليحة بن عبد الله الذي ادّعى النبوة بعد ذلك فأسلموا وقالوا يا رسول الله أتيناك

(١) أي تصوت

تتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا فأنزل الله في ذلك (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلون في الجاهلية من العيافة (١) والكهانة (٢) وضرب الحصباء فنهاهم عن ذلك كله ثم سألوه عن ضرب الرمل فقال علمه نبي فمن صادف مثل علمه فذاك والا فلا ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض وبعد ذلك ودعوا وانصرفوا بعد أن أجيزوا

﴿ وفود بني عزرة ﴾

(ومنها) وفد بني عزرة ووفد بني بليّ ووفد بني مرة ووفد خولان وهي قبيلة باليمن وقد أمرهم عليه السلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار لمن جاور وأن لا يظلموا أحداً فان الظلم ظلمات يوم القيامة

﴿ وفود بني محارب ﴾

(ومنها) وفد بني محارب وكانوا من الذين ردوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل الى الله فما أعظم منة الله الذي أتى بهؤلاء وكانوا ألد الأعداء مسلمين منقادين

---

(١) هي زجر الطير والتخرص على الغيب (٢) هي الاخبار عن الكائنات في المستقبل

﴿ وفود غسان ﴾

(ومنها) وفد غسان ووفد سلامان ووفد بني عبس ووفد النخع وكان عليه السلام يقابل هذه الوفود بما جبله الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق ويجيزهم بما يرضيهم ويعلمهم الايمان والشرائع ليعلموا من وراءهم وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لاظهار الدين بين الاعراب في البوادي

﴿ وفاة ابراهيم ابن النبي عليه السلام ﴾

(وفي) هذه السنة توفى ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في التاسع والعشرين من شهر شوّال سنة ١٠ من الهجرة ٢٧ يناير سنة ٦٣٧ من الميلاد

﴿ السنة الحادية عشرة ﴾

(سرية)

لأربع بقين من صفر جهز عليه السلام جيشاً برياسة أسامة بن زيد الى أبني (١) حيث قتل زيد بن حارثة والد أسامة وقال له (سر الى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش فأغر صباحاً على أهل أبني وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الأخبار فان ظفرك الله فأقل اللبث فيهم وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك

(١) محل قريب من مكة

وكان مع أسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد ثم عقد عليه السلام لأسامة اللواء وقال له (أغز باسم الله في سبيل الله وقاتل من كفر بالله) وقد انتقد جماعة تأمير أسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين فأبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً وخرج فقال (أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله وايم الله ان كان لخليقاً بالإمارة وان ابنه من بعده خليق بها وان كان لمن أحب الناس اليّ وانهما لمظنة لكل خير فاستوصوا به خيراً فانه من خياركم) ولم يتم لهذا الجيش الخروج في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لأن المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الاعلى وسيرى القارئ ان شاء الله خروج هذا الجيش متمماً في كتابنا (اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء)

﴿ مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ﴾

لما تم عليه الصلاة والسلام ما كلف به وأدّى ما اؤتمن عليه وهدى الله به أمته اختاره الله للرفيق الأعلى فجلس على المنبر مرة وكان فيما قال (ان عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده) فبكى أبو بكر وقال يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا

فقال عليه السلام (ان أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن اخوة الاسلام لا يبقى في المسجد خوخة الا سدت الا خوخة أبي بكر) وقد بدأه عليه السلام مرضه في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان في خلالها ينتقل الى بيوت أزواجه ولما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرض في بيت عائشة الصديقية فأذنّ له ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال هريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد الى الناس فأجلس في مخضب وصب عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتنّ وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب من يضع يده فوق ثوبه

﴿ صلاة أبي بكر بالناس ﴾

ولما تعذر عليه الخروج الى الصلاة قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فرضيه عليه السلام خليفة له في حياته ولما رأت الأنصار اشتداد وجع الرسول أطافوا بالمسجد فدخل العباس وأعلمه بمكانهم واشفاقهم فخرج عليه السلام متوكئا على علي والفضل وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس في أسفل مرقاة المنبر وثار الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فأخلد فيكم ألا اني لاحق

بربي وانكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرًا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله تعالى يقول (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وان الأمور تجرى باذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) وأوصيكم بالأنصار خيرًا فانهم الذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم من الثمار ألم يوسعوا لكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا واني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا فان موعدكم الحوض ألا فمن أحب أن يرده عليّ غدًا فليكفف يده ولسانه الا فيما ينبغي) وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلي بهم اذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سجف حجرة عائشة فنظر اليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبه ليصل الصف وظن أن رسول الله يريد أن يخرج الى الصلاة وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله فأشار اليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر

﴿ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم دنياه ولحق بمولاه وكان ذلك في يوم الاثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٢) فيكون عمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية كاملة وثلاثة أيام واحدى وستين شمسية وأربعة وثمانين يوماً وكان أبو بكر غائباً بالسنح وهي منازل بني الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد فسل عمر سيفه وتوعد من يقول مات رسول الله وقال انما أرسل اليه كما أرسل الى موسى فلبث عن قومه أربعين ليلة والله اني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم فلما أقبل أبو بكر وأخبر الخبر دخل بيت عائشه وكشف عن وجه رسول الله فجثا يقبله ويبكي ويقول توفى والذي نفسى بيده صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً بأبي أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتين ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (ألا من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لا يموت) وتلا قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقوله (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) قال عمر فكأني لم أتل هذه الآية قط ثم مكث عليه

الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويومه وليلة الأربعاء حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم فغسل ودفن وكان الذي يغسله علي بن أبي طالب ويساعده العباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله وكفن في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره في بيته ودخل الناس عليه ارسالاً متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ثم حفر له لحد في حجرة عائشة حيث توفى وأنزله القبر علي والعباس وولداه الفضل وقثم ورش قبره بلال بالماء ورفع قبره عن الأرض قدر شبر

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك للمسلمين ما ان اتبعوه لم يضرهم شيء كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وترك أصحابه البررة الكرام يوضحون الدين ويتممون فتح البلاد ويظهرون في الدنيا شمس الدين الاسلامى القويم حتى يتم الله كلمته ويحق وعده وقد فعل فنسأل الله أن يقدرنا على أداء شكره على هذه المنة العظمى والنعمة الكبرى

﴿ شمائله عليه السلام ﴾

منح الله سبحانه نبينا صلى الله عليه وسلم من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممن قبله أو بعده ولا بد أن نأتي لك في هذا

الباب (١) بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه لتكون لك نموذجاً تسير عليه حتى تكون على قدم نبيك عليه الصلاة والسلام فتستحق الحمد في الدنيا والذخر في الأخرى . فاعلم أرشدني الله وإياك وهدانا للصراط السوي أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة ومكتسب ديني وهو ما يحمد فاعله ويقرب الى الله زلفى فأما الضروري فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلته عليه السلام من كمال الخلقة وجمال الصورة وقوة العقل وصحة الفهم وفصاحة اللسان وقوة الحواس والأعضاء واعتدال الحركات وشرف النسب وعزة القوم وكرم الأرض ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة اليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه أما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية والآداب من الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها وهي التي يجمعها حسن الخلق فاذا نظرت رعاك الله الى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته عليه السلام حائزاً لجميعها محيطاً بشتات محاسنها

(١) جل ما ذكر في الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله

فأما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه صلى الله عليه وسلم كان أزهر اللون (١) أدعج (٢) أنجل (٣) أشكل (٤) أهدب الأشفار (٥) أبلج (٦) أزج (٧) أقنى (٨) أفلج (٩) مدوّر الوجه واسع الجبين كث اللحية تملأ صدره سواء البطن عظيم الصدر عظيم المنكبين (١٠) ضخم العظام عبل (١١) العضدين والذراعين والأسافل رحب الكفين والقدمين سائل الأطراف أنور المتجرد دقيق المسربة (١٢) ربعة القد ليس بالطويل البائن (١٣) ولا القصير المتردد (١٤) ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب الى الطول إلا طاله صلى الله عليه وسلم رجل الشعر اذا افترّ ضاحكاً افترّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حب الغمام اذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه أحسن الناس عنقاً ليس

(١) نير اللون أو حسنه (٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها (٣) واسع العين مع حسن (٤) في بياض عينيه حمرة (٥) كثير شعر حروف الأجفان (٦) مضيء الوجه مشرقه (٧) دقيق الحاجبين في طول (٨) مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها (٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات (١٠) المنكب مجمع رأس العضد والكتف (١١) ضخم (١٢) المسربة شعر دقيق من الصدر الى البطن (١٣) مفرط الطول (١٤) المتناهي في القصر

بمطهم (١) ولا مكلثم (٢) متماسك البدن ضرب اللحم قال البراء بن عازب ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو هريرة ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأن الشمس تجري في وجهه واذا ضحك يتلألأ في الجدر وفي حديث ابن أبي هالة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر وقال علي في آخر وصفه له من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم

(وأما) نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد فكان قد خصه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تممها بنظافة الشرع قال عليه السلام بنى الدين على النظافة وقال أنس ما شممت عبيرًا قط ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله وعن جابر أنه عليه السلام مسح خده قال فوجدت ليده بردًا وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار قال غيره مسها بطيب أو لم يمسها يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها . ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها وروى البخاري في تاريخه الكبير عن جابر لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمر في طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه

(١) المطهم البائن الكثير اللحم (٢) المكلثم صغير الذقن

(وأما) وفور عقله صلى الله عليه وسلم وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية انه كان أعقل الناس وأذكاهم ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته للعامة مع عجيب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاد من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سابق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب لم يتمار في رجحان عقله وثقوب فهمه لاول بديهة وكان عليه السلام اذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه وبذلك فسر قوله تعالى (وتقلبك في الساجدين) وقالت عائشة كان عليه السلام يرى في الظلمة كما يرى في الضوء وكان يعد في الثريا أحد عشر نجماً وجاءت الأخبار أنه صرع ركانة أشد أهل وقته وكان دعاه الى الاسلام وقال أبو هريرة ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه كأنما الأرض تطوى له انا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث وفي صفته عليه السلام أن ضحكه كان تبسماً اذا التفت التفت معاً واذا مشى مشى تقلعاً كأنما ينحط من صبب

(وأما) فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع وبراعة منزع وايجاز مقطع وفصاحة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب

كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقيال حضرموت وملوك اليمن وعظماء نجد بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ وما انتهجته من طرق البلاغة ليبين للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعلمون

(وأما) كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازى فصاحة وبلاغة كقوله المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وقوله الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار مؤتمن ورحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم وقوله أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان أحبكم اليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون وقوله لعله كان يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما لا يغنيه وقوله ذو الوجهين لا يكون وجيهًا عند الله ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ومنع وهات وعقوق الأمهات ووأد البنات وقوله اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق

الناس بخلق حسن وخير الأمور أوسطها وقوله أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة وقوله في بعض دعائه اللهم اني أسألك رحمة تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري وتلم بها شعثي وتصلح بها رغائبي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدي وترد بها ألفتي وتعصمني بها من كل سوء اللهم انى أسألك الفوز في القضاء ونزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء الى غير ذلك مما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز سبقاً لا يقدر قدره وقد قال له أصحابه ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال وما يمنعني وانما نزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد جمع بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشر (وأما) سرو نسبه وكرم بلده ومنشئه فما لا يحتاج الى إقامة دليل عليه ولا بيان مشكل ولا خفى منه فانه نخبة بني هاشم ونخبة قريش وصميمها وأشرف العرب وأعزهم نفرًا من قبل أبيه وأمه ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده وقد قدمنا لك في أول الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام

(أما) ما تدعو اليه ضرورة الحياة فمنه ما الفضل في قلته ومنه ما الفضل في كثرته ومنه ما تختلف الاحوال فيه فالأول كالغذاء والنوم ولم تزل العرب والحكماء قديماً تمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة مسبب لمضار الدنيا والآخرة جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس وامتلاء الدماغ وقلته دليل على القناعة وملك النفس وقمع الشهوة مسبب للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن كما أن النوم دليل على الفسولة والضعف وعدم الذكاء والفطنة مسبب الكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفع وقساوة القلب وغفلته وموته وكان عليه السلام قد أخذ من الاكل والنوم بالأقل وحض عليه قال عليه السلام (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا محالة فثلث لطعامة وثلث لشرابه وثلث لنفسه) ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب وقالت عائشة رضي الله عنها لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قط وانه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه ان أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب وفي صحيح الحديث (أما أنا فلا آكل متكئاً) والاتكاء هو التمكن للاكل والتقعدد في الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ماتحته والجالس على هذه الهيئة يستدعي الاكل ويستكثر منه والنبي عليه

السلام انما كان جلوسه للاكل جلوس المستوفز مقعياً ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وكذلك نومه كان قليلاً ومع ذلك فقد قال ان عيني تنامان ولا ينام قلبي

(وأما) ما الفضل في كثرته فكالجاه وهو محمود عند العقلاء عادة وبقدر جاهه عظمه في القلوب وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام (وجيهاً في الدنيا والآخرة) وكان النبي عليه السلام قد رزق الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه في نفسهم خفية حتى اذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته كما ذكرنا لك ذلك مراراً وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روى عن قيلة أنها لما رأته أرعدت من الفرق فقال (يا مسكينة عليك السكينة) وفي حديث أبي مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له عليه السلام (هون عليك فاني لست بملك)

(وأما) عظيم قدره بالنبوة وشريف منزلته بالرسالة وانافة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم

(وأما) ما تختلف فيه الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال فصاحبه على الجملة معظم عند العامة

لاعتقادها توصله به الى حاجاته وتمكنه في أغراضه والا فليس فضيلة في نفسه فمتى كان بهذه الصورة وصاحبه منفقاً له في مهماته ومهمات من قصده وأمله مصرفه في مواضعه مشترياً به المعالي والثناء الحسن والمنزلة في القلوب كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا واذا صرفه في وجوه البر وأنفقه في سبيل الخير وقصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة كان فضيلة عند الكل بكل حال ومتى كان صاحبه ممسكاً له غير موجهه وجوهه حريصاً على جمعه عاد كثره كالعدم وكان منقصة في صاحبه ولم يقف به على جدد السلامة بل أوقعه في وهدة رذيلة البخل ومذمة النذالة فالتمدح بالمال ليس لذاته بل للتوصل به الى غيره وتصريفه في متصرفاته ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتى خزائن الأرض ومفاتيح البلاد وأحلت له الغنائم وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق وجلب اليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين وقال (ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينار الا ديناراً أرصده لديني) وأتته دنانير مرة فقسمها وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال الآن استرحت ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه

على ما تدعو ضرورتهُ اليه وزهـد فيما سواه فكان يلبس ما وجده فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر فأنت ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاز فضيلة المال بالزهد فيه وانفاقه على مستحقيه

(وأما) الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهي المسماة بحسن الخلق فجميعها قد كانت خلق نبينا صلى الله عليه وسلم على الانتهاء في كمالها والاعتدال في غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال (وانك لعلى خلق عظيم) قالت عائشة كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه وقال عليه السلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال أنس كان عليه السلام أحسن الناس خلقاً وكانت له هذه الآداب الكريمة كما كانت لاخوانه من الأنبياء جبلة خلقوا عليها ثم يتمكن الأمر لهم وتترادف نفحات الله عليهم وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة دون نهاية ولا ممارسة وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة ولكنا نذكر أصولها ونشير الى جميعها ونحقق وصفه عليه السلام بها ان شاء الله

(فأصل) فروعها وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها العقل الذي منه

ينبعث العلم والمعرفة ويتفرع عن هذا ثقوب الرأي وجودة الفطنة والاصابة وصدق الظن والنظر للعواقب ومصالح النفس ومجاهدة الشهوة وحسن السياسة والتدبير واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل وقد بلغ عليه السلام منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه يعلم ذلك من تتبع مجاري أحواله واطراد سيره وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سيره وحكم حديثه وعلمه بما في التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسات الأنام وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة والشيم الحميدة الى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة واشاراته حجة كالطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارسة ولا مطالعة كتب من تقدم ولا الجلوس الى علمائهم بل نبيٌّ أميٌّ لا يعرف شيئاً من ذلك حتى شرح الله صدره وأبان أمره وعلمه وبحسب عقله كانت معارفه عليه السلام الى سائر ما علمه الله وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان وعجائب قدرته وعظيم ملكوته قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما)

(وأما) الحلم والاحتمال والعفو والقدرة والصبر على ما يكرهه فمما أدب الله به نبيه فقال (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد سأل عليه السلام جبريل عن تأويلها فقال يا محمد ان الله يأمرك

أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك ان ذلك لمن عزم الأمور) وقال (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقال (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور) وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه السلام بنهاية هذه الأوصاف فما من حليم الا عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة ونبينا لا يزيد مع كثرة الايذاء إلا صبرا وعلى إسراف الجاهل الا حلما قالت عائشة رضي الله عنها ما خير عليه السلام في أمرين قط الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس منه وما انتقم لنفسه الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله . ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أحد وطلب منه أن يدعو عليهم قال اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزؤا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه ثم قاتلوه وحرضوا عليه غيرهم من مشركي العرب حتى تمالأ عليه جمعهم ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح وقال ما تقولون اني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فقال (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وعن أنس كنت مع النبي عليه السلام وعليه برد غليظ الحاشية فجذبه اعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ثم قال يا محمد احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك

فانك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك فسكت النبي ثم قال المال مال الله وأنا عبده ثم قال ويقاد منك يا اعرابي ما فعلت بي قال لا قال لم قال لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر قالت عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مظلمة ظلمها قط مالم تكن حرمة من محارم الله تعالى وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله وما ضرب خادماً ولا امرأة فصلى الله تعالى عليه وأقرّ عينه باتباع المسلمين سنته

(وأما) الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان عليه السلام لا يوازى في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارى وصفه بهذا كل من عرفه قال جابر رضي الله عنه ما سئل عليه السلام عن شيء فقال لا وقال ابن عباس كان عليه السلام أجود الناس بالخير وأجود ما كان في شهر رمضان وكان اذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة وقالت خديجة في صفته عليه السلام مخاطبة له انك تحمل الكل وتكسب المعدوم وحسبك شاهداً في هذ الباب ما فعله مع هوازن من رد السبي اليها وما فعله يوم تقسيم السبي من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيم الأعطية وقد استوفينا ذلك في موضعه وحمل اليه عليه السلام تسعون ألفاً فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر

ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره ذلك عليه السلام فقال له رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش اقلالاً فتبسم عليه السلام وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت والأخبار بجوده وكرمه عليه السلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه

(ومنها) الشجاعة والنجدة فكان عليه السلام منهما بالمكان الذي لا يجهل قد حضر المواقف الصعبة وفرّ الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح . ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما من شجاع الا أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه وحسبك ما فعله في حنين وأحد مما ذكرناه مستوفي وقال ابن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عليّ انا كنا اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب الى العدوّ منه ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدوّ وكان من أشد الناس يومئذ بأساً وقال أنس كان عليه السلام أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه السلام راجعاً قد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا

(وأما) الحياء والاغضاء فكان عليه السلام أشد الناس حياءً

وأكثرهم عن العورات اغضاء قال أبو سعيد الخدري كان عليه السلام أشد حياءً من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه وكان عليه السلام لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفس قالت عائشة كان عليه السلام اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا بل يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهي عنه ولا يسمي فاعله وقالت رضي الله عنها لم يكن عليه السلام فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً بالاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح

(وأما) حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه مع أصناف الخلق فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة قال علي رضي الله عنه كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة وكان عليه السلام يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ويتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه لايحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الخلق سواء بهذا وصفه ابن أبي هالة وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب

ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) وقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم) وكان عليه السلام يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعاً ويكافئ عليها وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويلاعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وقال أنس ما التقم أحد أذن النبي يحادثه فنحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر وكان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة ولم ير قط مادًّا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان أبى ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام وكان أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب

(وأما) الشفقة والرأفة والرحمة بجميع الخلق فقد وصفه الله بها في قوله (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقال

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أأحسنت اليك قال الاعرابي لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل اليه وزاده شيئاً ثم قال أأحسنت اليك فقال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا فقال عليه السلام انك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك قال نعم فلما كان الغد أو العشي جاء فقال عليه السلام ان هذا الاعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها الا نفورًا فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فاني أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار وقال عليه السلام لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر وكان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته وعن ابن مسعود كان عليه السلام يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا

(وأما) خلقه عليه السلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فروى

عن عبد الله بن أبي الحمساء قال بايعت النبي عليه السلام ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو مكانه فقال يا فتى لقد شققت عليّ أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك وكان اذا أتى بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة انها كانت تحب خديجة . وكان عليه السلام يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ووفد عليه وفد فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه نكفيك فقال انهم كانوا لأصحابنا مكرمين واني أحب أن أكافئهم وفي حديث خديجة ابشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق

(وأما) تواضعه عليه السلام على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبرًا وحسبك انه خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبدًا فاختار أن يكون نبياً عبدًا وخرج عليه السلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً وقال انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد وكان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس وقال عليه السلام (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن

مريم انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) وحج عليه السلام على رحل رث وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولاسمعة . هذا وقد فتحت عليه الأرض وأهدى في حجه هذا مائة بدنة ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى . وعن أبي هريرة رضى الله عنه دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل وقال للوازن زن وأرجح ثم قال فوثب الى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها فجذب يده وقال هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك انما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله قال صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله

(وأما) عدله عليه السلام وأمانته وعفته وصدق لهجته فكان آمن الناس وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محادُّوه وأعداؤه وكان يسمى قبل نبوّته الأمين وقد قدمنا ذلك في سيرته عليه السلام قبل النبوة . وفي الحديث عنه عليه السلام ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها قال أبو العباس المبرد قسم كسرى أيامه فقال يوم الريح يصلح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للهو والشرب ويوم الشمس للحوائج ولكن نبينا عليه السلام جزأ نهاره ثلاثة أجزاء جزء لله وجزء لأهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزأه بين الناس فكان يستعين بالخاصة على

العامة ويقول (أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي فان من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الاكبر) وكان عليه السلام لا يأخذ أحدًا بذنب أحد ولا يصدق أحدًا على أحد

(وأما) وقاره عليه السلام وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فكان عليه السلام أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان اذا جلس احتبى بيديه وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسماً وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرًا له واقتداءً به مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير . وقال ابن أبي هالة كان سكوته عليه السلام على أربع على الحلم والحذر والتقدير والتفكر . وقالت عائشة رضى الله عنها كان عليه السلام يحدث حديثاً لو عدّه العادّ لأحصاه وكان يحب الطيب والرائحة الحسنة ويستعملهما كثيرًا ويحض عليهما ومن مروءته عليه السلام نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والامر بالاكل مما يلي والامر بالسواك وانقاء البراجم والرواجب (مواصل الاصابع من ظاهر الكف وباطنها)

(وأما) زهده عليه السلام فقد قدمنا لك فيه ما فيه الكفاية

وحسبك شاهدًا على تقلله من الدنيا واعراضه عن زهرتها وقد سيقت اليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها أن توفى عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله وهو يدعو ويقول اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع عليه السلام ثلاثة أيام تباعًا من خبز حتى مضى لسبيله وقالت ما ترك عليه السلام دينارًا ولا درهمًا ولا شاةً ولا بعيرًا ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي وقال اني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت لا يارب أجوع يومًا وأشبع يومًا فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك وقالت عائشة ان كنا آل محمد لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا ان هو إلا التمر والماء وعن أنس ما أكل عليه السلام على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق ولا رأى شاةً سميطًا قط وفي حديث عائشة كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه أدمًا حشوه ليف وعن حفصة كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته مسحًا نثنيه ثنيتين فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع فلما أصبح قال ما فرشتموني الليلة فذكرنا له ذلك فقال ردوه بحاله فان وطأته منعتني الليلة صلاتي وقالت عائشة لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعًا قط ولم يبث شكوى الى أحد وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى وان كان ليظل جائعًا

يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ولقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك فيقول يا عائشة مالي وللدنيا اخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي ان ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدًا دونهم وما من شيء أحب اليّ من اللحوق باخواني وأخلائي قالت فما أقام بعد الا أشهرًا حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه

(وأما) خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه ولذلك قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت (صوتت) السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى لوددت أني شجرة تعضد وكان عليه السلام يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال (أفلا أكون عبدًا شكورا) وقالت عائشة رضى الله عنها كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم

ديمة وأيكم يطيق ما كان يطيق وقالت كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم وقال عوف بن مالك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى فقمت معه فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا مرّ بآية عذاب الا وقف وتعوّذ ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك ثم قرأ آل عمران ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك وقال بعضهم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل وفي وصف ابن أبي هالة كان متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة وعن علي رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال (المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوّتي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وثمرة فؤادي في ذكره وغمي لأجل أمتي وشوقي الى ربي) فجزاه الله من نبي عن أمته خيرًا ورحم الله عبدًا تأمل في هذه الشمائل الكريمة والخصال الجميلة فتمسك بها واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحوز شفاعته يوم الفزع الاكبر ويرضى الله عنه فنسألك اللهم التوفيق لما فيه الخير بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين

﴿ معجزاته عليه السلام ﴾

اذا تأمل المتأمل ما قدمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يمتر في صحة نبوّته وصدق دعوته وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والايمان به كعبد الله بن سلام فانه قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر اليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . وروى مسلم أن ضمادًا لما وفد عليه قال له صلى الله عليه وسلم (ان الحمد لله نحمده ونستعينه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله) فقال له ضماد أعد عليّ كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر هات يدك أبايعك ولما بلغ ملك عمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه الى الاسلام قال والله لقد دلني على هذا النبي الأميّ أنه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ولا ينهي عن شيء الا كان أول تارك له وانه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفي بالعهد وينجز الموعود وأشهد أنه نبي وقال ابن رواحة

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقًا لدعوته من المعجزات مالا

يفي به العد فهو أكثر الأنبياء آية وأظهرهم برهانا وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقر به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون في صحاحهم ونبدأ منها بأظهرها شأنا وأوضحها بيانا وهو القرآن الشريف واعجازه (اعلم) أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة (أولها) حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت انسان ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن ويجرئون الجبان ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي ومنهم الحضري ذو البلاغة

البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية وكلاهما له في البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة والقدح الفالج والمهيع الناهج لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحاً لبلوغ أسبابها فقالوا في الخطير والمهين وتفننوا في الغث والسمين وتقاولوا في القل والكثر وتساجلوا في النظم والنثر فما راعهم الا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أحكمت آياته وفصلت كلماته وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول وتضافر إيجازه وإعجازه وتظاهرت حقيقته ومجازه وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه وحوت كل البيان مجامعه وبدائعه واعتدل مع ايجازه حسن نظمه وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً وأشهر في الخطابة رجالاً وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً وأوسع في الغريب واللغة مقالاً بلغتهم التي بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون صارخاً بها في كل حين ومقرعاً لهم بضعاً وعشرين عاماً على رؤس الملأ أجمعين (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (وان كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا

بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا) (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاغتراء بالافتراء وقولهم (ان هذا الا سحر يؤثر وسحر مستمر وافك افتراه وأساطير الأولين) والمباهتة والرضا بالدنية كقولهم (قلوبنا غلف وفي أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) والادعاء مع العجز كقولهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وقد قال لهم (ولن تفعلوا) فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخافهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم والا لم يخف على أهل الميز منهم انه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم بل ولوا عنه مدبرين وأتوا اليه مذعنين وأنت اذا تأملت قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقوله (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) وقوله (ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حميم) وقوله (وقيـل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) وقوله (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وأشباهها من الآي بل أكثر القرآن حققت ما بينته من ايجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها وان تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمة وعلوماً زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منهـا وكثرت المقالات في المستنبطات عنها ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عنـدها الكلام ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضـه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها ثم اذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها (الوجه الثاني) من اعجاز القرآن صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليهِ ووقفت عليهِ مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته اليه ولم يوجد قبـله ولا بعـده نظير له ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه بل حارت فيه عقولهم

وتذلت دونه أحلامهم ولم يهتدوا الى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر والاعجاز بكل واحد من النوعين والايجاز والبلاغة بذاتها أو الأسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع اعجاز لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منهما اذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها (الوجه الثالث) من الاعجاز ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوقع فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر كقوله تعالى (لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) وقوله عن الروم (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وقوله (ليظهره على الدين كله) وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) وقوله (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) فكان جميع هذا كما أخبر فغلبت الروم فارس ودخلت الناس في الدين أفواجا واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم في وقت من أقصى بلاد الأندلس غربا الى أقاصي الهند شرقا ومن بلاد الأناضول شمالاً الى أقاصي السودان جنوبا وقوله (انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فكان كذلك الى الآن والحمد لله وقوله (سيهزم الجمعُ ويولون الدبر) فكان كذلك في بدر والآية نزلت بمكة وقوله (قاتلوهم

يعذبهم الله بأيديكم) فكان كذلك مما اطلع عليه قارئ هذه السيرة وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم كقوله (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) وقوله (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) وقوله (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين) الى غير ذلك من الآيات البينات (الوجه الرابع) ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده عليه السلام على وجهه ويأتي به على نصه فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه وان مثله لم ينله بتعليم وقد علموا أنه عليه السلام أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة لم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم وكثيرًا ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا كقصص الأنبياء و بدء الخلق وما في الكتب السابقة مما صدقه فيها العلماء بها ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها ولم يؤثر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفه بعد أن قرعهم ووبخهم بقوله (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه

ما تحداهم فيه الله بقوله (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) ثم ختم عدم إجابتهم بقوله (ولن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم) فاسمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا وقد قدمنا ذلك في فصل وفودهم . ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر الروعة التي تلحق قلوب سامعيه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وانافة خطره حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا ولهذا قال عليه السلام ان القرآن صعب مستصعب على من كرهه وهو الحكم وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه مع تلاوته توليه اقبالاً وتكسبه هشاشة لميل قلبه اليه وتصديقه به قال تعالى (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) وقال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) ومن وجوه اعجاز القرآن كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وقال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وسائر معجزات الأنبياء لم يبق الا خبرها والقرآن الى وقتنا هذا حجة قاهرة ومعارضة ممتنعة والأعصار كلها طافحة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام

وجهابذة البراعة والملحد فيهم كثير والمعاند للشرع عتيد فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته ولا ألف كلمتين في مناقضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك الا بزند شحيح . بل المأثور عن كل من رام ذلك القاؤه في العجز بيديه . والنكوص على عقبيه ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه السلام في القرآن قال (ان الله أنزل هذا القرآن آمرًا وزاجرًا وسنة خالية ومثلاً مضروبًا فيه نبؤكم وخبر من كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم لا يخلقه طول الرد ولا تنقضى عجائبه هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن خاصم به فلج ومن حكم به أقسط ومن عمل به أجر ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ومن حكم بغيره قصمه الله هو الذكر الحكيم والنور المبين والصراط المستقيم وحبل الله المتين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب)

(ومن) معجزاته عليه السلام انشقاق القمر وقد قدمنا حديثه مستوفى

(ومن) معجزاته عليه السلام نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته وقد روى هذا الجم الغفير من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود قال أنس رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانت صلاة

العصر فالتمس الناس ماء للوضوء فلم يجدوه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع في الاناء يده وأمر الناس أن يتوضؤا منه قال فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤا عن آخرهم فقيل كم كنتم قال زهاء ثلاثمائة وقال ابن مسعود بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم وليس معنا ماء فقال لنا اطلبوا من معه فضل ماء فأتى بماء فصبه في اناء ثم وضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وقال جابر عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء الا ما في ركوتك فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قيل كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة . وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة الى المحدث به لأنهم كانوا أسرع شيء الى تكذيبه لما جبلت عليه نفوسهم من ذلك ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم لهم

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك وانهم وردوا العين وهي تلمع بشيء

من ماء مثل الشراك فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ثم غسل عليه السلام فيه وجهه ويديه وأعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقى الناس وفي رواية ابن اسحق فانخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق ثم قال يوشك يا معاذ ان طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملئ جناناً وقد قدمنا ذلك في غزوة تبوك . وروى عن البراء وسلمة بن الاكوع تكثير عين الحديبية بدعوته عليه السلام . وروى أبو قتادة أن الناس شكوا الى رسول الله العطش في بعض أسفاره فدعا بالميضأة فجعلها في صبنه (ما بين الكشح الى الابط) ثم التقم فمها فالله أعلم أنفث فيها أم لا فشرب الناس حتى رووا وملؤا كل اناء معهم فخيل لي أنها كما أخذها مني وكانوا اثنين وسبعين رجلاً . ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محال مختلفة بحيث لايشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها

(ومن) ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم روى طلحة أنه عليه السلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت إبطه فأمر بها عليه السلام ففتتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول . وروي جابر أنهُ عليه السلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق وقال جابر فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وان برمتنا لتغط كما هي وان عجيننا ليخبز وكان عليه

السلام قد بصق في العجين والبرمة وبارك . وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبي بكر طعاماً يكفيهما فأطعم منه عليه السلام مائة وثمانين رجلاً . وروى مثل ذلك كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن أبي بكر وسلمة بن الاكوع وأبي هريرة وعمر بن الخطاب وأنس بن مالك رضوان الله عليهم أجمعين

(ومن) معجزاته عليه السلام قصة حنين الجذع قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل فكان عليه السلام اذا خطب يقوم الى جذع منها فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد لخواره وفي رواية سهل وكثر بكاء الناس لما رأوه به وفي رواية المطلب وانشق حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت زاد غيره فقال عليه السلام ان هذا بكى لما فقد من الذكر وزاد غيره والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا الى يوم القيامة تحزناً على رسول الله فأمر به فدفن تحت المنبر وهذا الحديث خرجه أهل الصحة ورواه من الصحابة كثيرون ورواه عنهم من التابعين ضعفهم وبمن دون عدتهم يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب . والله المثبت على الصواب

(ومن) معجزاته عليه السلام ابراء المرضى وذوي العاهات فقد أصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فردها

عليه السلام فكانت أحسن عينيه وأحدّهما وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد فما ضرب عليه ولا قاح وأصاب ابن ملاعب الاسنة استسقاء فبعث الى النبي عليه السلام فأخذ بيده حثوة من الارض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها يرى أنه قد هزئ به فأتاه بها وهو على شفا فشربها فشفاه الله وتقدم حديث علي ورمده في غزوة خيبر وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عده ورواه ثقات المسلمين الأعلام

(أما) ما منحه الله إياه من اجابة دعواته فروى عن أنس بن مالك قال قالت أمي أم سليم يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له فقال اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته قال أنس فوالله ان مالي لكثير وان ولدي وولد ولدي ليعادُّون اليوم نحو المائة ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانون ألفاً وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير وردت عليه تحمل من كل شيء فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها

(ودعا) لمعاوية بالتمكين في الأرض فنال الخلافة ودعا لسعد باجابة الدعوة فما دعا على أحد الا استجيب له وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعز الاسلام به وقال لأبي قتادة أفلح وجهك اللهم بارك في شعره وبشره فمات وهو ابن سبعين سنة كأنه ابن خمس عشرة

ودعواته عليه السلام المستجابة أكثر من أن تحصى يطلع عليها قارئ سيرتنا هذه

(أما) ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فما سارت به الركبان فعن حذيفة رضي الله عنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء وانه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ثم اذا رآه عرفه وما أدري أنسى أصحابي أم تناسوه والله ما ترك عليه السلام من قائد فتنة الى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا الا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة لا تخاف الا الله وأن المدينة ستغزى ويفتح خيبر على يد علي في غد يومه وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر وقد قدمنا كثيرًا من ذلك في هذه السيرة وقدمنا ما في القرآن من ذلك وهذا يغنينا عن الاطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت

(ومما) ينير بصيرتك أيها القارئ ما منّ الله به على رسولنا من

عصمته له من الناس وكفايته من آذاه قال تعالى (والله يعصمك من الناس) وقال (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) وقال (أليس الله بكاف عبده) وقال (انا كفيناك المستهزئين) ولما نزل (والله يعصمك من الناس) صرف حجابه وقال انصرفوا فقد عصمني الله وقد قدمنا حديث دعثور وارادته قتل النبي عليه الصلاة والسلام وعصمة الله لنبينا وذكرنا كثيرًا مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكايد فكفاه الله شره وما منّ الله به عليه ليلة الهجرة وحديث سراقة في الطريق وعلى الجملة فيكفينا من هذا الباب أنه عليه السلام مكث بين أعداء ألداء بمكة ثلاث عشرة سنة وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين فما تمكن أحد من إيصال أذى اليه صلى الله عليه وسلم بل كفاه مولاه شر أعدائه حتى أظهر الدين وتممه والحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده ونسأله أن يوفق قارئي هذه السيرة الى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأنصاره

قد تم بحمده تعالى طبع كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين وهو كتاب جمع زبدة السيرة بعبارات رائقة تناسب جميع الطبقات وذلك بمطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٣٩ هجرية على صاحبها أفضل صلاة وسلام وأتم تحية

﴿ فهرست كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ﴾

صحيفة		صحيفة	
٢	خطبة الكتاب	٢٢	ما أكرمه الله به قبل النبوة
٤	النسب الشريف	٢٣	تبشير التوراة به
٧	زواج عبد الله بآمنة وحملها	٢٧	تبشير الانجيل به
٩	الرضاع	٢٨	حركة الافكار قبل البعثة
٩	حادثة شق الصدر	٢٩	بدء الوحي
١٠	وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب	٣٢	فترة الوحي
		٣٣	عود الوحي
١١	السفر الى الشام المرة الاولى	٣٣	الدعوة سرًّا
١١	حرب الفجار	٤٠	الجهر بالتبليغ
١٤	حلف الفضول	٤٤	الايذاء
١٥	رحلته الى الشام المرة الثانية	٥٠	اسلام حمزة
١٥	زواجه خديجة	٦١	هجرة الحبشة الاولى
١٦	بناء البيت	٦١	اسلام عمر
١٨	معيشته عليه السلام قبل البعثة	٦٣	رجوع مهاجرى الحبشة
٢٠	سيرته في قومه قبل البعثة	٦٥	كتابة الصحيفة

صحيفة	
٦٦	هجرة الحبشة الثانية
٦٧	نقض الصحيفة
٦٨	وفود نجران
٦٩	وفاة خديجة رضى الله عنها
٧٠	زواج سودة
٧٠	زواج عائشة رضى الله عنها
٧٢	هجرة الطائف
٧٤	الاحتماء بالمطعم بن عدي
٧٤	وفد دوس
٧٥	الاسراء والمعراج
٧٨	العرض على القبائل
٨٠	بدء إسلام الانصار
٨١	العقبة الاولى
٨٢	العقبة الثانية
٨٥	هجرة المسلمين الى المدينة
٨٥	دار الندوة

صحيفة	
٨٧	هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم
٩٠	النزول بقباء
٩١	هجرة الانبياء
٩٢	أعمال مكة
٩٣	مسجد قباء
٩٤	الوصول الى المدينة
٩٤	أول جمعة
٩٥	النزول على أبي أيوب
٩٦	نزول المهاجرين
٩٦	أخوة الاسلام
٩٧	هجرة أهل البيت
٩٨	حمى المدينة
٩٨	منع المستضعفين من الهجرة
٩٩	السنة الاولى بناء المسجد
١٠٠	بدء الاذان
١٠٢	يهود المدينة

صحيفة

١٠٤ المنافقون
١٠٥ معاهدة اليهود
١٠٥ مشروعية القتال
١٠٨ بدء القتال
١٠٩ سرية
١١٠ وفيات
١١١ السنة الثانية غزوة ودان
١١١ غزوة بواط
١١٢ غزوة العشيرة
١١٢ غزوة بدر الاولى
١١٣ سرية
١١٤ تحويل القبلة
١١٥ صوم رمضان
١١٥ صدقة الفطر
١١٥ زكاة المال
١١٦ غزوة بدر الكبرى
١٢٩ أسرى بدر

صحيفة

١٣٠ الفداء
١٣٥ العتاب في الفداء
١٣٦ غزوة قينقاع
١٣٨ جلاء قينقاع
١٣٨ غزوة السويق
١٣٩ صلاة العيد
١٤٠ زواج علي بفاطمة عليهما السلام
١٤٠ السنة الثالثة
١٤١ قتل كعب بن الاشرف
١٤٢ غزوة غطفان
١٤٣ غزوة بحران
١٤٤ سرية
١٤٤ غزوة أحد
١٥٤ غزوة حمراء الاسد
١٥٥ حوادث
١٥٧ السنة الرابعة

صحيفة	
١٥٨	سرية
١٥٩	سرية
١٦٠	غزوة بني النضير
١٦٢	غزوة ذات الرقاع
١٦٣	غزوة بدر الآخرة
١٦٤	حوادث
١٦٤	السنة الخامسة غزوة دومة الجندل
١٦٥	غزوة بني المصطلق
١٦٨	حديث الافك
١٧٣	غزوة الخندق
١٧٧	الخدعة في الحرب
١٧٨	هزيمة الاحزاب
١٧٩	غزوة بني قريظة
١٨٣	زواج زينب بنت جحش
١٨٦	الحجاب
١٨٨	فرض الحج

صحيفة	
١٨٩	السنة السادسة سرية
١٩٠	غزوة بني لحيان
١٩١	غزوة الغابة
١٩٢	سرية
١٩٣	سرية
١٩٣	سرية
١٩٤	سرية
١٩٤	سرية
١٩٥	سرية
١٩٥	سرية
١٩٦	سرية
١٩٦	قتل أبي رافع
١٩٨	سرية
١٩٩	قصة عكل وعرينة
٢٠٠	سرية
٢٠١	غزوة الحديبية
٢٠٤	بيعة الرضوان

صحيفة	
٢٠٥	صلح الحديبية
٢٠٩	مكاتبة الملوك
٢٠٩	كتاب قيصر
٢١٠	حديث أبي سفيان
٢١٢	كتاب أمير بصرى
٢١٣	كتاب الحارث بن أبي شمر
٢١٣	كتاب المقوقس
٢١٤	كتاب النجاشي
٢١٥	كتاب كسرى
٢١٦	كتاب المنذر بن ساوى
٢١٧	كتاب ملكي عمان
٢١٨	كتاب هوذة بن علي
٢١٩	السنة السابعة غزوة خيبر
٢٢٣	زواج صفية
٢٢٣	النهي عن نكاح المتعة
٢٢٤	رجوع مهاجري الحبشة
٢٢٤	فتح فدك

صحيفة	
٢٢٥	صلح تيماء
٢٢٧	فتح وادي القرى
٢٢٦	اسلام خالد ورفيقيه
٢٢٦	سرية
٢٢٦	سرية
٢٢٨	سرية
٢٢٨	عمرة القضاء
٢٢٩	زواج ميمونة
٢٣٠	السنة الثامنة
٢٣٠	سرية
٢٣٠	سرية
٢٣١	سرية
٢٣٢	غزوة مؤتة
٢٣٤	سرية
٢٣٥	سرية
٢٣٦	غزوة الفتح الاعظم
٢٤٣	العفو عند المقدرة

صحيفة

٢٤٦ وفود كعب بن زهير
٢٤٧ بيعة النساء
٢٤٨ هدم العزى
٢٤٨ هدم سواع
٢٤٨ هدم مناة
٢٤٩ غزوة حنين
٢٥٣ سرية
٢٥٣ غزوة الطائف
٢٥٥ تقسيم السبى
٢٥٨ وفود هوازن
٢٥٩ عمرة الجعرانة
٢٦٠ سرية
٢٦٠ وفود صداء
٢٦١ سرية
٢٦١ وفود تميم
٢٦٢ سرية
٢٦٣ سرية

صحيفة

٢٦٤ السنة التاسعة
٢٦٤ سرية
٢٦٥ وفود عدي بن حاتم
٢٦٦ غزوة تبوك
٢٦٩ وفود صاحب أيلة
٢٦٩ كتاب صاحب أيلة
٢٧٠ كتاب أهل أذرح وجرباء
٢٧٠ مسجد الضرار
٢٧١ حديث الثلاثة الذين خلفوا
٢٧٢ وفود ثقيف
٢٧٣ كتاب أهل الطائف
٢٧٤ هدم اللات
٢٧٤ حج أبي بكر
٢٧٥ وفاة ابن أبيّ
٢٧٥ وفاة أم كلثوم
٢٧٦ السنة العاشرة
٢٧٦ سرية

صحيفة

٢٧٦ سرية
٢٧٧ بعث العمال على اليمن
٢٧٨ حجة الوداع
٢٧٨ خطبة الوداع
٢٨١ الوفود
٢٨٢ وفود نجران
٢٨٣ وفود ضمام بن ثعلبة
٢٨٣ وفود عبد القيس
٢٨٥ وفود بني حنيفة
٢٨٥ وفود طيئ
٢٨٦ وفود كندة
٢٨٦ وفود أزدشنوءة
٢٨٧ وفود رسول ملوك حمير
٢٨٧ كتاب ملوك حمير
٢٨٨ وفود همدان
٢٨٨ وفود تجيب
٢٨٩ وفود ثعلبة

صحيفة

٢٩٠ وفود بني سعد بن هذيم
٢٩١ وفود بني فزارة
٢٩١ وفود بني أسد
٢٩٢ وفود بني عزرة
٢٩٢ وفود بني محارب
٢٩٣ وفود غسان
٢٩٣ وفاة ابراهيم ابن النبي عليه السلام
٢٩٣ السنة الحادية عشرة سرية
٢٩٤ مرض الرسول صلى الله عليه وسلم
٢٩٥ صلاة أبي بكر بالناس
٢٩٧ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٩٨ شمائله عليه السلام
٣٢٢ معجزاته عليه السلام

﴿ تم ﴾

تنبيه

سيظهر قريبا للمؤلف

كتاب

تاريخ التشريع الاسلامي

وهو كتاب حافل بايضاح ذلك التاريخ في جميع أدواره من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان التشريع وحياً من الله في كتابه وبياناً من الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته ثم زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعين لهم باحسان ثم زمن التدوين وظهور نوابغ الفقهاء الذين اعترفت لهم الأمة بالزعامة مع بيان المذاهب القائمة والمذاهب المندثرة وأسباب ما كان بين هذه المذاهب من الخلاف الى الزمن الذي صار فيه تقليداً محضاً والأسباب التي دعت الى رضا الجماهير الاسلامية بذلك ؟

﴿ يطلب من مكتبة ﴾

عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

(بشارع خان جعفر بجوار سيدنا الحسين)

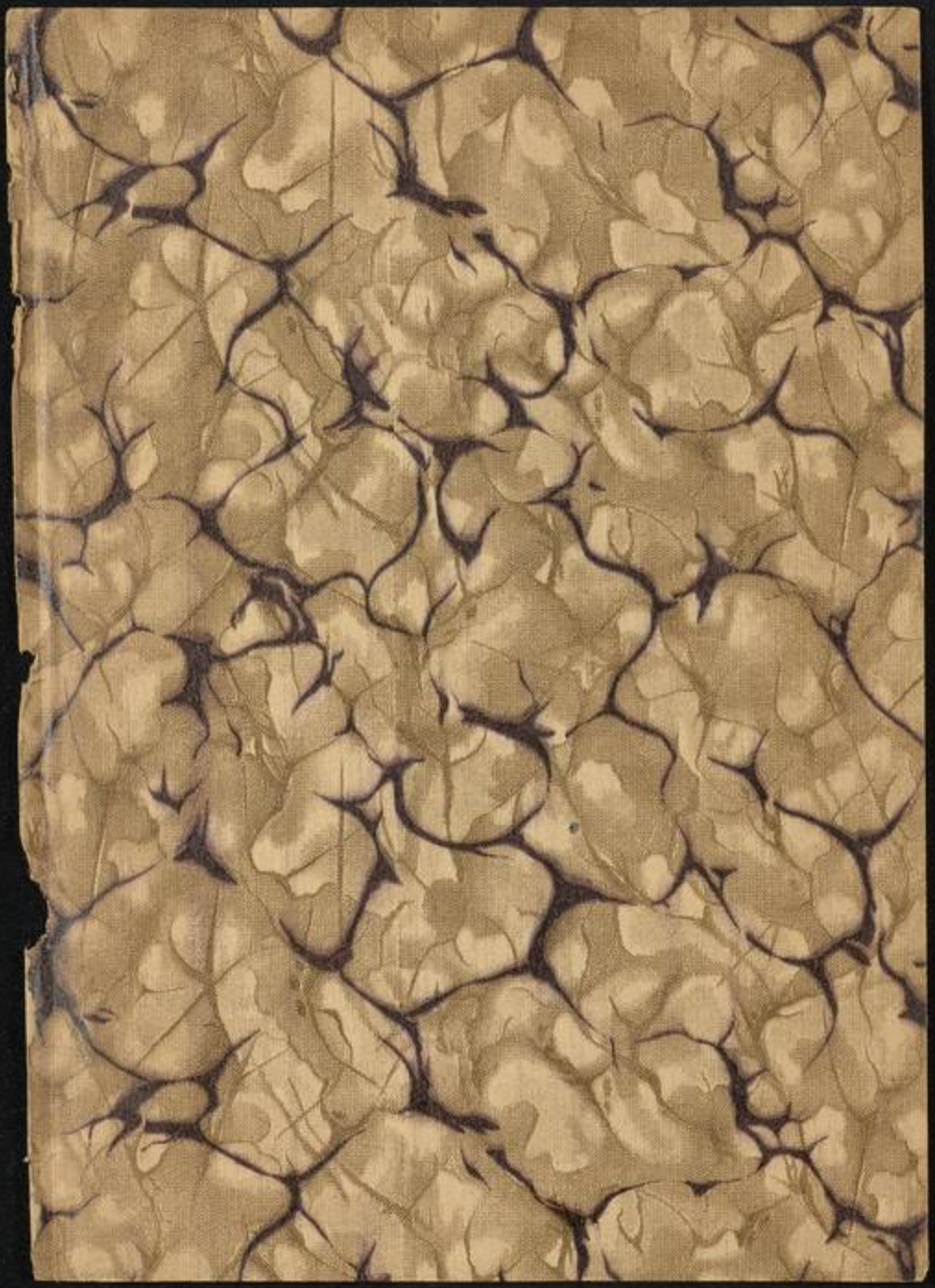

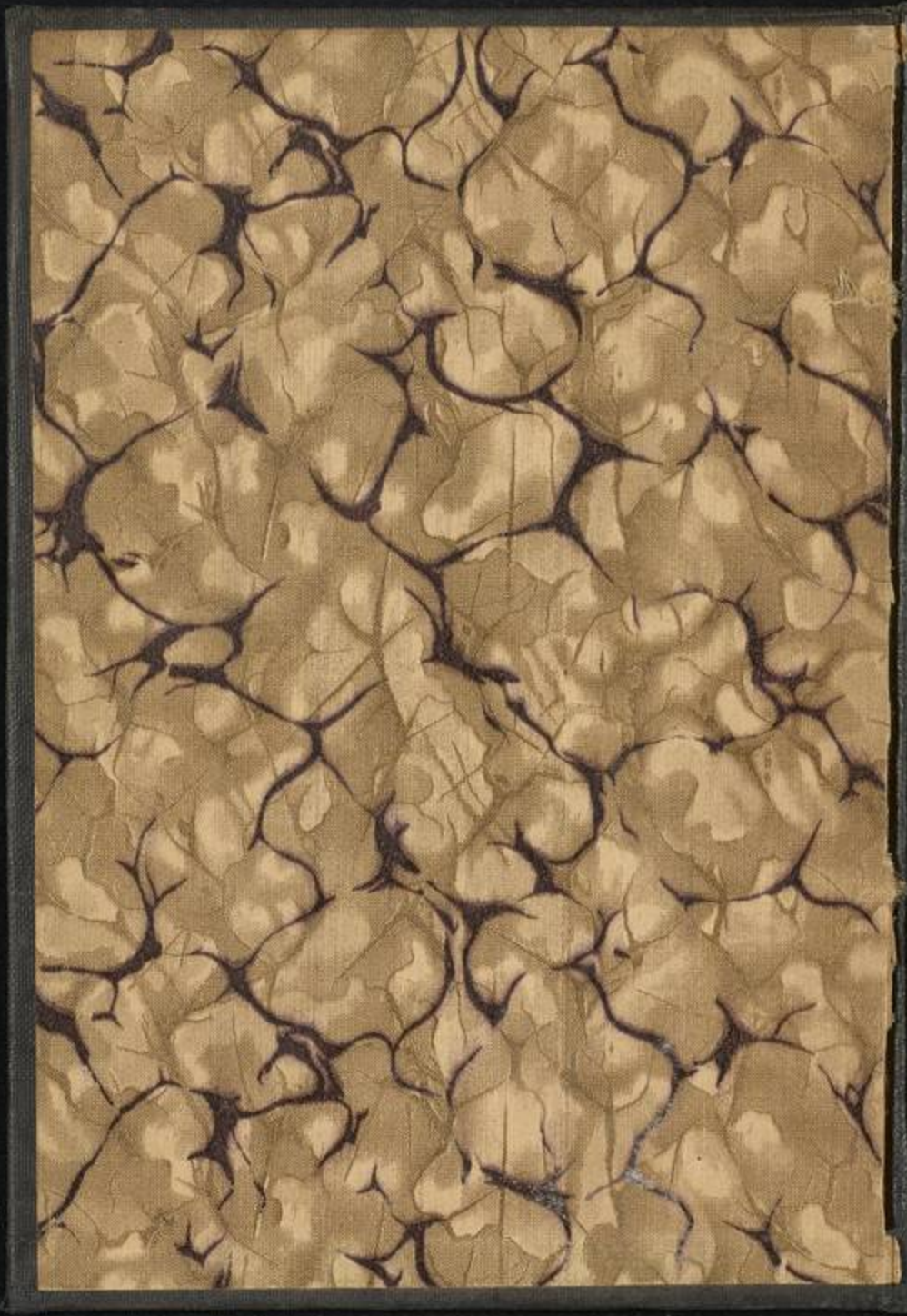

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59576243
ME06623 Kitab nur al-yaqin f